

الكتاب قوام شوقنا لكتاب

حسين، طه

808.1:H96haA

C.2

حافظ وشوقي

حافظ وشوقي

Karam

205

808.1

H96haA

C 2

JAFET LIB
8 MAY 1982

6 May 87

10 FEB 1966

JAFET LIB May 87

27 58

26 58

28 FEB 1976

13 DEC 1968

13 NOV 1971

1 OCT 1974

1 JUN 78

INT 59

29 OCT 1981

14 Jun 69

1 Jun 70

14 FEB 1972

JAFET LIB

1971

APR 82

APR 30 82

[Faint, illegible handwritten text]

15 7 77
10 10 64-1929
10 10 64-1929

15 7 77

11 7 77

80-2319

11 7 77

808 1

H96 haA

C.2.

حافظ وشوي

لغة صينية

892.7109

Ha3924h2A

الطبعة الثانية

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

ص ٠ ب ١٣٧٥

مطبعة دار الجهاد

١٤ شارع ابراهيم بالقاهرة

cat. 17 oct. 53

تذکرہ شہداء

دہلی

تذکرہ شہداء

۷۵۲۱

تذکرہ شہداء و شہداء
فی القلہ و جلالہ

۵۷۷۱ ب ر

٦	الادب الجديد
١٠	مقدمات
١٩	المثل الأعلى
٢٨	في الذوق الأدبي
٤٥	شعراؤهم
٥٤	بودلير (الحرية والفن)
٦٣	النثر العربي في نصف قرن
٨٤	البؤساء
٩٣	الشعر الشوقية الجديدة
١٠٤	النظم. قصيدة حافظ الأخيرة
١١٥	شعراؤنا و مترجم أرسططاليس
١٥٢	الرناء في شعر حافظ
١٧٥	حافظ وشوقي

مقدمة

إذا أذن الكاتب لنفسه أن يتحدث الى الناس، أو وجد الكاتب من نفسه الشجاعة على أن يتحدث اليهم؛ فمن الحق عليه لآرائه التي يذيعها، وخواطره التي يقيدها أن تصل هذه الآراء والخواطر الى أضخم عدد ممكن من القراء، لا في الوقت الذي تكتب فيه فحسب، بل فيه وفيما يليه من الأوقات .

فلست أدري لم أذيع الرأي في ألف ولا أذيعه في آلاف؟ ولست أدري لم أعلن الرأي في بيئة دون بيئة، وأقدمه الى جيل دون جيل؟ ولا سيما اذا مضت الأيام، وتعاقبت الأعوام وأنا مقيم على هذا الرأي . لم أتحوّل عنه ولم أستبدل به رأياً آخر . واذا كنت أرى أن هذا الرأي حق، أو أن فيه خيراً قليلاً أو كثيراً فقد يصبح حقاً على الناس أن أطلعهم بهذا الرأي، وأن أظهرهم عليه لأن أول ما يجب على الكاتب أن يؤثر الناس بالخير ويختصهم بما يعتقد أن فيه لهم نفعاً . واذا فلن أتردد في اذاعة هذه الفصول التي نشرت في صحف مختلفة، وفي أوقات مختلفة، وفي ظروف متباينة . نشر بعضها في

السياسة، وبعضها في الجديد، وبعضها في المقتطف، وبعضها في
الهلل. ونشر أقدمها منذ عشر سنين وأحدثها في السنة
الماضية، ونشر بعضها وأنا أجاهد الشعراء وأخاصمهم، ونشر
بعضها الآخر بعد أن استأثر الله بشاعرينا العظمين حافظ
وشوقي، فبطل الجهاد وزالت الخصومة، ولم يبق لهما في نفسي
إلا المودة والذكرى والميل إلى الانصاف.

لن أتردد في جمع هذه الفصول وإذاعتها بين الناس في
كتاب، وإن كانت قد نشرت، وإن كان من الكتاب من يضيق
بمثل هذه الأسفار، التي يجمع فيها أصحابها ما نشروا من فصول،
ويرى أن هذا النوع من الكتب أشبه بالحديث المعاد.

ذلك لأن هذه الفصول التي نجتمعها بعد أن نشرناها
متفرقة لم تصل إلى الناس جميعاً، أو إلى أكثر من ينبغي أن
تصل إليهم فليس كل الناس يقرأ كل الصحف والمجلات،
وليس كل المثقفين يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات،
ومن المحقق أننا نذيع الفصل اليوم فيقرأه فلان، ولا يقرأه
فلان؛ لأنه جهله أو لأنه صرف عنه لسبب من الأسباب. فإذا
بعد العهد بهذا الفصل نسيه من قرأه، ومضى في جهله من لم
يقرأه. ولم تشعر بوجوده هذه الأجيال الناشئة من الشباب

الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم للعلم والأدب والفن في كل عام . ومن المحقق أن الفصول التي نشرت منذ عشر سنين فقرأها المثقفون والمستثيرون يومئذ ، ثم ظلت في الصحف مقبورة تنتظر أن تبعث أو أن يظفر بها مضادة بعض المنقبين . من المحقق أن هذه الفصول مجهولة الآن جهلاً تاماً من المثقفين والمستثيرين الذين يقرأون الآن ، والذين كانوا في طور الصبا حين كانت هذه الفصول تكتب وتذاع . فمن الحق على الكاتب لنفسه ومن الحق عليه لهذه الأجيال الناشئة أن يجمع لهم هذه الفصول ، وأن يذيعها فيهم إذا كان لا يزال يرى ألا بأس باذاعتها وإظهار الناس عليها . كذلك يفعل الكتّاب والنقاد خاصة في كل بلد وفي كل جيل . وأين كنا نظفر بنقد سانت بوف Sainte Beuve وجول لومتر Jules Lemaitre وأناطول فرانس Anatole France لو لم يجمعوا لنا هذه الفصول البارعة التي ملأوا بها الصحف والمجلات في نقد الآثار الأدبية القديمة والحديثة . وكثير من هؤلاء النقاد لا يعرفون الآن إلا بهذه الفصول التي نشروها متفرقة أول الأمر . ثم جمعوها أسفاراً أو جمعت لهم بعد ذلك . وقد قرأت هذه الفصول بعد وفاة حافظ وشوقي

رحمهما الله، فرأيت أنى ما زلت الآن عند الآراء التى أذعتها
 فيها على مضى الوقت واختلاف الظروف، فلم أر بأساً من أن
 أجمعها وأعيد اذاعتها مستعداً أحسن الاستعداد للنضال عنها
 والذود دونها والرجوع عن بعضها إن تفضل بعض النقاد
 فأظهرنى على أن فيها جوراً عن القصد أو انحرافاً عن الحق .
 وإذا كان الذين قرأوا هذه الفصول متفرقة زهدون فى قراءتها
 مجتمعة ، فانى أهدي هذه الفصول الى شبابنا الذين لم يقرأوها
 أو لم يقرأوا أكثرها ، وأرجو أن يجدوا فى قراءتها ما قصدت
 اليه حين كتبها وحين جمعتها من إثارة الميل القومى الى درس
 الأدب والعناية به وتقوية الذوق الفنى وتوجيهه هذا الوجه
 الجديد الذى يلائم حياتنا وآمالنا ومثلنا العليا فى هذا العصر
 الذى نعيش فيه .

طه حسين

القاهرة ٥ مارس ١٩٣٣

الأدب الجديد

لم تظهر حاجة الأدب إلى النظام في يوم من أيام هذا العصر الحديث ظهورها الآن ، فقد كان الأدب العربي أول هذا العصر مطمئناً إلى حظه راضياً بحاله . مؤمناً بأنه يرضى حاجة الناس إلى الجمال الفني في الكلام ، قانعاً أيضاً بما كان بينه وبين الأدب العربي المنحط من صلة ، مقتنعاً بأن هذا الأدب العربي المنحط أرقى أنواع الأدب وأدناها إلى المثل الأعلى للجمال الفني البياني . وكان الكتاب والشعراء - أول القرن الماضي وأثناءه - يرون أنهم قد أدوا ما عليهم من حق البيان إذا أداروا هذه الجمل والألفاظ التي كانوا يدبرونها على نحو من البديع مألوف ، فيه جناس وطباق ، وفيه استعارة ومجاز ، وفيه إشارة ورمز إلى أنحاء من المعنى تخطر لهم ، وقل أن تخطر لغيرهم من الناس . وكان الناس يطمثون إلى هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة وتنصرف عنه العامة إلى أزجالها وموإيلها ، وإلى قصصها وأحاديثها . وكانت الحياة الغربية الجديدة تتخلص إلى مصر وسوريا في شيء من الرفق والدعة حيناً ، وفي شيء من العنف والشدّة حيناً آخر . وماهى إلا أن اجتهد هذا القرن التاسع عشر

حتى كانت الحياة الغربية قد وصلت الى طائفة من الناس فأثرت
بعض التأثير في عقولهم ، وعجزت عن أن تؤثر في شعورهم
وعواطفهم ؛ فكانت حياة عقلية فيها شيء من الجدة ، وفيها
ميل الى الخروج على القديم . وكان اندفاع يختلف قوة وضعفاً
الى العلم باختلاف الظروف وأطوار الحياة الفردية والاجتماعية ،
وأنشئت مدارس وظهرت صحف وترجمت كتب ، ولكن
الأدب ظل كما هو قديماً أو متين الاتصال بالقديم . وظلت
لغة الشعر والنثر كما كانت ، قريبة الى العامية ، متأثرة بفنون
البيان والبديع ؛ حين تحاول البعد عن هذه اللغة العامية ، بينما كان
الطب وغيره من العلوم والفنون الحديثة يتطور مسرعاً الى التجديد .
ولكن المطبعة أخذت في هذا العصر تحدث في مصر
والشرق أثراً كالذي أحدثته في أوروبا إبان النهضة الأوروبية
منذ قرون ، فظهرت كتب قديمة في الدين والأدب واللغة
والنحو وما إليها ، وعرف الناس أن حظ اللغة العربية من
إنتاج العقل والشعور والبحث والانفعال أكثر مما كانوا
يظنون ، وأن وراء هذه الكتب الجامدة المحدودة - التي كانوا
يستظفرونها في الأزهر - كتباً أخرى كثيرة ، فيها حياة وقوة ،
وفيها جمال عقلي وفني لم يكن لهم به عهد من قبل . فأخذوا

يقرأون، وما هي إلا أن تأثروا بما كانوا يقرأون، وما هي إلا أن ظهرت آثار هذه القراءة في طريقتين متوازيتين ولكنهما على ذلك مختلفتان، ظهرت هذه الآثار في الأزهر حين عرفت الكتب القديمة في اللغة والدين، وفي التفسير والحديث، والكلام والفلسفة بنوع خاص. فاضطرب إيمان الأزهرين بالكتب القائمة والعلم المألوف، وأخذوا في ثورة - على تلك النظم وهذا العلم - لم تزل قائمة، ولم تظهر ثمرتها في الأزهر بعد. وظهرت بعيداً عن الأزهر في أذواق الكتاب والشعراء وطائفة من القراء، حين قرأوا طائفة من الشعر القديم جاهلية وأموية وعباسية. وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التي ظهرت أيام العباسيين. فرأوا في هذا كله قرباً من الطبيعة، وبعداً من التكلف، ورأوا في هذا كله حياة للحس والعاطفة والعقل، وأحسوا بعد ما بين هذا النحو من الأدب الحي وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحي أقرب إلى نفوسهم، وأقدر على تمثيل عواطفهم، وتصوير شعورهم من هذا الأدب الجديد الميت، الذي لا يمثل إلا قدرة أصحابه على جميع الألفاظ وتفريقها، والملاءمة بينها حسب طرائق البديع دون أن تمثل هذه الألفاظ المجموعة أو المتفرقة

والملتزمة أو المختلفة حركة قلب من القلوب ، أو شعور نفس من النفوس ، ودون أن تتصل هذه الألفاظ بقلوب القراء و نفوسهم ، إذ كانت لم تصدر عن قلوب الأدباء ولا نفوسهم . فأخذ الذوق يتغير ، وكان تغيره قوياً ، ظهر في مظهرين مختلفين : أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب العصري ، والآخر إيثار اللغة القديمة والأساليب القديمة على لغة هذا العصر وأساليبه . ورأينا رجلاً كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسي ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى ، ورأى أن الأدب العصري أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسي الحى فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل مولير في الزجل العامى لا فى الشعر العربى . ورأينا شعراء يتحللون من قيود البديع وينصرفون الانصراف كله عن الفنون التى ألفها الشعراء فى عصرهم ، ثم يفترقون فمنهم من يتجه إلى اللغة العامية فإذا هو ينظم فيها الزجل والموال ، ومنهم من يتجه إلى اللغة العربية القديمة فإذا هو ينظم فيها الشعر متأثراً شعراء الجاهلية والاسلام والعصر العباسى . وكان النشر يساير الشعر فى هذه الحركة ولكن تطوره كان بطيئاً : كان أبطأ من تطور الشعر ، فكان الكتاب يعتمدون على اللغة

العامة ، وكانوا يعتمدون على اللغة القديمة الفصحى ، ولكنهم كانوا يجدون مشقة شديدة في التخلص من قيود السجع والبديع ، ومن ضروب خاصة فرضت عليهم في التعبير فرضاً فلم يكن اطراحها يسيراً عليهم .

R- كذلك ظهر شعر البارودي آخر القرن الماضي وأول هذا القرن ؛ عربياً فصيحاً حراً طليقاً ، بينما كان نثر الشيخ محمد عبده مضطرباً بين فصاحة النثر القديم وركة النثر الحديث ، متردداً بين حرية القدماء ورق المحدثين . ورأينا المتأخرين المحافظين في النثر قد عمروا حتى أول هذا القرن ، ولم يخلصوا من قيد السجع والبديع إلا بعد أن طغى عليهم سيل هذه النهضة الحديثة التي ظهرت عنيفة بعد الحرب الكبرى . وما نزال نرى إلى الآن طائفة من الكتاب النثرين قليلين ، ولكنهم موجودون يكتبون فيسجعون ويخضعون لقيود البديع وأغلاله خضوعاً منكراً ، بينما أفلت الشعراء إفلاتاً تاماً من قيود البديع وأغلاله ، فلا نكاد نرى شاعراً مصرياً في هذا العصر يتقيد به أو يخضع له .

R- تغير الذوق الأدبي إذن بفضل المطبعة ، واندفع الكتاب والشعراء إلى نحو آخر من النثر والشعر لم يكن مألوفاً من قبل ، ولكن الكتاب والشعراء اندفعوا في طريقين متعاكستين

تعا كساً تاماً. فأما الكتاب فجروا إلى الإمام وتخلف منهم فريق ،
وأما الشعراء فجروا إلى وراء ، ولم يكدي يتخلف منهم أحد .
ومن هنا كان النثر العربي في هذا العصر جديداً كله أو كالجديد ،
وكان الشعر العربي في هذا العصر قديماً كله أو كالقديم . ومن
هنا كثرت معارضة البارودي وشوقي وصبري وحافظ لفحول
الجاهلية والإسلام في الشرق والغرب ، ولم يكثر بين الكتاب
الناثرين من تأثر بعبداً الحميد أو ابن المقفع أو الجاحظ ، فإن
وجد منهم من تأثر بهؤلاء الكتاب فهم قليلون ، وتأثرهم ضيق
محدود ، لا يلبث أن يزول ويقوم مقامه تأثر بكتاب آخرين
ليسوا من العرب وآدابهم في شيء .

وجد بين الكتاب والخطباء في هذا العصر من حاول أن
يكون جاحظاً النزعة أو مقفياً الأسلوب ، أو مقتدياً بعلی وزياد
والحجاج في الخطابة ، ولكن هذه المحاولة كانت طوراً من
أطوار حياتهم الفنية لا أكثر ولا أقل ، فما لبثوا أن اندفعوا
في تقليد الكتاب الغربيين والخطباء الغربيين ، فبعد الأمد
فيهم وبين مثلهم القديمة . ولم يوجد أو قل لم يكن يوجد بين
الشعراء من حاول أن يتأثر فكتور هوجو أو لامارتين أو
بيرون أو جوت ، بل في الأمر شيء من العجب فبين كتابنا

الناثرين من تأثروا هؤلاء الشعراء الغربيين ، وحاولوا تقليدهم
في النثر كما حاولوا تقليد الكتاب والخطباء من أهل الغرب .
ولعل من الخير والحق أن نصف الشعراء فنلاحظ
أنهم كانوا مضطرين إلى أن يتأثروا بالقديم أول الأمر ، لأن
هذا التأثير بالقديم في نفسه دليل على الحياة والقوة والقدرة
على البقاء والجهاد . هو دليل على أن لهذا الأدب العربي ماضياً
خصباً فيه غناء وفيه قدرة على الحياة ومغالبة العصور ، وفيه قوة
على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأنماطه القديمة عن طائفة من
أنحاء الحياة الجديدة مضت بينه وبينها قرون طوال . ثم إن
الكتاب والخطباء كانوا يحكمون الكتاب والخطابة نفسه
متصلين بالحياة الاجتماعية اليومية ، وحياتنا الاجتماعية اليومية
متطورة سريعة التطور متحركة قوية الحركة ، فلم يكن بد للكتابة
والخطابة من أن تتبعها في تطورها السريع وحركتها القوية ،
بينما أرادت حياتنا الأدبية أن يكون الشعر زينة وهواً
لا تتصل بحياة اليوم ، ولا تظهر إلا من حين إلى حين عندما
تدعو إلى ظهورها حاجة قوية ، أو ضرورة ماسة . فالشعر
غير مكره على السير السريع ، ولا على الحركة الحثيثة ، فليس
غريباً أن يسرع النثر ويبطئ الشعر .

نعم ولكن النثر لم يدفعه الى السرعة اتصالنا بحياتنا الاجتماعية اليومية وحده ، وإنما دفعه الى هذه السرعة أيضاً نشاط الكتاب ، واتصالهم بحياة الشرق والغرب ، وانصرافهم الى القراءة والجد وحرصهم على التأثير في نفوس القراء ، بل حرصهم على السيطرة على هذه النفوس . كما أن الشعر لم يضطره الى البطء بعده عن الحياة الاجتماعية واليومية وحده ، وإنما اضطره إليه أيضاً ما أشرت إليه - في غير هذا الموضع - من كسل الشعراء وفطورهم ، وانصرافهم عن القراءة ، وتعلقهم بالخيال وحده ، وافتتانهم بالقديم وازدراؤهم للجديد .
ومهما تكن الأسباب التي دعت إلى رقي النثر وإسراعه في هذا الرقي ، وإلى جمود الشعر واستمساكه بهذا الجمود ، فإن هناك حقائق أدبية واقعة ، لا سبيل إلى الجدل فيها ، وهي أن نهضتنا الأدبية إنما استمدت روحها وحياتها من القديم قبل أن تستمد من الجديد ، وأن نهضتنا الشعرية ظلت إلى الآن قديمة في نشأتها وروحها وغايتها ؛ بينما تطورت نهضتنا النثرية ، فلم تعتمد على القديم إلا ريثما ينبت في جناحها الريش . فلما استوثقت من جناحها طارت مستقلة ، فبلغت من الرقي أمداً بعيداً .

✓ وإذن، فعندنا كتاب مجددون، وعندنا كتاب أحيوا النثر
✓ القديم. وللكتاب فضلان: فضل هذا التجديد الذي لم يكن،
✓ وفضل هذا الإحياء لما كان قد عبث به الزمان. وعندنا شعراء
والكنهم لم يجددوا شيئاً، ولم يبتكروا ولم يستحدثوا، وإنما
اكتسبوا شخصيتهم من القديم، واستعاروا مجدهم الفني من
القدماء، فليس لهم إلا فضل واحد هو فضل الإحياء. وما زال
ينقصهم فضل آخر هو فضل الإنشاء والابتكار.

وكل هذه الحقائق واضحة لمن يلم بالأدب ^{العربي} الحديث
إلمامة مجملّة. ولكن في مصر طائفة من الأدباء، لا يريدون أن
يطمئنوا إليها أو يعترفوا بها، يشق عليهم أن يقال: أن ليس
لهذا العصر شعراء في مصر. وكيف لا! وفي مصر أمير
الشعراء، وكبير الشعراء، وشاعر النيل، وشاعر القطرين،
وشاعر العرب، وما شئت من هذه الأسماء والألقاب!

وليس من شك في أن هؤلاء الأدباء معذورون، فهم بين
✓ جاهل للمثل الأدبي الأعلى، وبين متأثر بالوطنية، يريد أن
يكون وطنه صاحب الزعامة الأدبية في الشرق من جهة، وأن
يثبت للبلاد الغربية في الجهاد من جهة أخرى. وكل هذا حسن،
أو كل هذا محتمل، ولكن هذا شيء والحقائق الواقعة شيء

آخر . ولا بد من أن يقتنع الأدباء جميعاً بأن ليس في مصر
شعر خليق أن يسمى هذا الاسم . ولا بد من أن يتكون في
مصر رأى عام في الأدب يدفع إلى الحرية الأدبية ، كما تكون
فيها رأى عام في السياسة يدفع إلى الحرية السياسية . وكـ
أكون سعيداً إن تناولت شعر شعرائنا النابهين فدرسته
درساً حراً مفصلاً بريئاً وأدّى هذا الدرس إلى تكوين
هذا الرأى العام الأدبي من بعض الوجوه .

— ٢ —

مقدمات .

بين يدي منذ أيام دواوين شعرائنا الثلاثة ، الذين اتفق
الناس أو كادوا يتفقون على أنهم أعلام الشعر العربي في هذه
الأيام ، وهم شوقي أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل
ومطران شاعر القطرين .

وقد كنت أمني نفسى ساعات أختلسها من حين إلى حين
لأنفقها مع هؤلاء الشعراء مرتاحاً إليهم ملتصقاً عندهم هذا الجمال
الفنى الذى يعوزنا فى حياتنا اليومية . وما زلت أمني نفسى هذه
الساعات فى إخلاص وحرص ، وستظل دواوينهم بين يدي
حتى أظفر منهم بهذه اللذة التى يلتصقها الناس عند الشعراء

ولك على ألا أكون أثراً ولا بخيلاً ، وأن أشركك فيما أجد
عندهم من متعة ، على أن أشركك أيضاً فيما أصادف عندهم من
نبو أو تقصير .

أما اليوم فقد حيل بيني وبين ما كنت أريد لأنني صادفت
في أول هذه الدواوين مقدمات أحبيت أن أقرأها فقرأتها ،
ووجدت في قراءتها لهواً ومتاعاً صرفني عن الشعراء . وليس
في ذلك شيء من العجب ، فقد كتب المقدمة لديوان شوقي صديق
هيكلي ، وأنا كلف بما يكتب هيكلي ، مفتون بقراءته والنظر فيه
وتقريظه ونقده ، جاداً مرة ، ومازحاً مرة أخرى . كلف بما
يكتب هيكلي كلفني بالتحدث إلى هيكلي نفسه . وأنا حين أنقده
أو أقرظه لا أسلك معه إلا الطريق التي أسلكها حين أتحدث
إليه : طريق فكاهة يمازجها الجد الذي لا يخلو من مرارة تحمله
أحياناً على أن يقول : أما إنك ما زلت شيخاً ! وقد خيل
إلي أن أذكر أن الناس كانوا يضيفون المقدمة التي صدر بها
ديوان حافظ إلى كاتب معروف كان في وقت من الأوقات
زعيماً للكتاب الذين عاصروه ، ثم انصرف عن الكتابة
ففسيه الناس ، ونسى هو نفسه أيضاً .

أما مقدمة ديوان مطران فقد كتبها مطران نفسه . وهو

بين هؤلاء الثلاثة الشاعر الوحيد الذي عنى بشعره ، ووجد في نفسه الشجاعة على تقديمه للقراء . فأما الشاعران الآخران فقد آثرا أن يستظلا بغيرهما من زعماء النثر . وربما كان لهذا الفرق بين مطران وصاحبيه شيء من الخطر ، وربما كان هذا الفرق الذي يظهر ضئيلاً عنواناً لفرق آخر عظيم بين شعر مطران وشعر صاحبيه .

فالحق أنك لا تعرف مذهب شوقي وحافظ في الشعر إلا إذا قرأت شعرهما واستقصيته ، واستخلصت هذا المذهب من قصائدهما ومقطوعاتهما ، بل من أبياتهما المتفرقة . ولكنك لا تقرأ بيتاً واحداً من شعر مطران في هذا الديوان إلا بعد أن تكون قد عرفت مذهب الرجل في الشعر ، وعقيدته الفنية ، وأسلوبه في فهم الجمال الأدبي وعرضه على الناس .

وبينما تلتبس مذهب شوقي في مقدمة هيكل ، ومذهب حافظ في مقدمة ذلك الكاتب المعروف فلا تجد هما أصلاً ، أو تجد هما في شيء من الغموض والمواربة والتأثر بنفسية الكاتبين ومزاجهما ومذهبهما الأدبي ؛ تجد مذهب مطران في الشعر واضحاً جلياً ، يعرضه عليك هو في صراحة وإخلاص ، لا يكدرهما إلا هذا السجع المتكلف ، ثمطران إذن حر في شعره ، ولكنه في نثره لم يضع عن نفسه الأغلال بعد .

وقد قرأت مقدمة هيكل ، وكنت أظن أنني سأظفر
فيها بمذهب شوقي في الشعر ، وأنا أعلم أن هيكلًا من أقدر
الناس على التحليل وأبرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان
جاك روسو وأنا تول فرانس وبيير لوتي ، فلم أشك أن كثيرًا
من الناس يستطيعون أن يقنعوا بقراءته عن قراءة هؤلاء الكتاب
أنفسهم . ولكني لم أكد أظفر بشيء صريح من العقيدة
الشعرية لشوقي فيما كتب عنه هيكل ، أترى أن مصدر ذلك
أن ليس لشوقي عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها؟ أم
ترى أن مصدر ذلك أن هيكلًا لم يعن بشعر شوقي عنايته بنثر
أنا تول فرانس وجان جاك وبيير لوتي؟ أم ترى أن هيكلًا قد
عجز عن فهم شوقي ، ووفق إلى فهم هؤلاء الكتاب الفرنسيين؟
أم ترى أن هيكلًا قد كتب مقدمته هذه عن طمع في الراحة
وفراغ البال؟ أم ترى أن كل هذه الأسباب قد اشتركت
وتظاهرت فقصرت بمقدرة هيكل عن أن تعرض العقيدة
الشعرية لأمر الشعراء في شيء من الوضوح والجلال؟

✓ الواقع أنني لا أعرف لأمر الشعراء عقيدة صريحة في
الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة ،
وما أرى أنه فكر في الشعر إلا حين يقوله ، إنما هو - كما يقول

✓
هيكل في شيء من الدهاء - مجدد حيناً ومقلد حيناً آخر. وهو
في تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما
يتأثر بالساعة التي يتهاى فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذي
يقرض فيه الشعر ليس غير . والواقع أيضاً أنا مكرهون
على أن نغنى بأناتول فرانس وجان جاك وبيير لوتي وأمثالهم
أكثر مما نغنى بشوقي وأمثاله ، لأننا نجد عند هؤلاء من اللذة
والغناء ما لا نجده عند شاعرنا المجيد ! ولأن نفوسنا تتصل
بنفوس هؤلاء الكتاب والشعراء من الفرنجة أكثر مما تتصل
بنفس شاعرنا العربي المصري . وأنا أزعم أن هيكلا لو كتب عن
بودلير أو فرلين أو بول فاليري من الشعراء الفرنسيين لوفق
أكثر من توفيقه حين كتب عن شوقي ! وقد أقام الدليل
على ذلك في غير شك حين كتب عن شكسبير فأغنى وأمتع .
ومن السخف أن نقول إن هيكلا يتقن الفرنسية
والانجليزية أكثر مما يتقن العربية ، فويل للعربية إذا لم يتقنها
هيكل ! وإنما الحق أن شعر شوقي لم يستطع أن يلهم هيكلا
ما استطاع أن يلهمه نثر الكتاب الفرنسيين ، وشعر الشاعر
الانجليزي الذين أشروا إليهم من قبل .

والخرج ظاهر في مقدمة هيكل كلها ، وإن شئت فقل إن

المجاملة ظاهرة . فأنا أراه يستغرق من هذه المقدمة جزءاً ليس
بالقصير ليبسط لنا رأيافى ظاهرة وجدها فى شعر شوقى ، وهى :
أن شخصية الشاعر ثنائية ، فهو مؤمن ، وهو محب للحياة ولذاتها ،
أقول : هو زاهد ومستمتع معاً . وقد حاول هيكى أن يعطى
هذه الثنائية فكداً وجد ولعله وفق ، ولكنه أعرض عن شىء
كنت أحب ألا يعرض عنه ، أعرض عن الصناعة الشعرية
التي تظهر للشعراء شخصيات مختلفة جداً ولا سيما فى أدبنا
العربى العصرى ، الذى لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبيعياً ،
وإنما يمثل تكلفه ورغبته فى إرضاء القراء فهو لاء الشعراء الذين
ينظمون فى الحكم والأخلاق إنما يريدون أن يتأثروا المتنبى
وأبا العلاء ، فشخصيتهم هذه الحية الزاهدة شخصية مصنوعة ،
كما أنهم حين يتغنون الخمر ، ويتها لكون على وصفها ، إنما يريدون
أن يتأثروا أبانواس والأخطل ، فشخصيتهم هذه الماجنة شخصية
مصنوعة ، كما أنهم حين يمدحون النبي إنما يريدون أن يتأثروا
صاحب البردة ، فشخصيتهم هذه مصنوعة . وهم لا يسلكون
طريقاً من طرق الشعر ، ولا يتعاطون فناً من فنون الشعر
الا مقتادين مقلدين ، فهم يصنعون شخصياتهم التي تراها فى
شعرهم ، هم يخفون بها شخصيتهم الأولى التي فطرها الله ، وهم

بهذا التكلف يحولون بينك وبين الوصول اليهم وفهمهم كما هم في حياتهم العادية . ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يغلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تأثير التكلف والتصنع والتقليد وتملق الجمهور والأفراد في هذه المرأة .

فازدواج الشخصية الذي يلح به هيكل في شعر أمير الشعراء لا يدل في حقيقة الأمر الا على أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين والمستمتعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر .

أما المقدمة التي صدر بها ديوان حافظ فريحة لأنها لا تشير الى حافظ ، ولا الى شعره بكثير أو قليل ، وانما هي كلام في الشعر من حيث يفهمه صاحب المقدمة ، وهو يفهمه على الطريقة الحقيقية الصرفة . وحسبك أنه يرى الشعر : « ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال ، ومغنى الفصاحة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة » فان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فأنت موفق سعيد ! أما انا فلا أرى فيه إلا اثرثرة وتكراراً . والمقدمة كلها على هذا النحو كلام مرصوف ولفظ مصفوف ، لامزية له الا أنه منتقى مختار .

وأما مقدمة مطران فقصيرة ولكنها متعبة ممتعة في وقت واحد : متعبة لما فيها من السجع الذي لا رشاقة فيه ولا ظرف ولا موسيقى ، وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئاً فقال له وهذا الشيء ليس بالتافه ولا باليسير . وإنما هو شيء قيم له خطره وأثره البعيد . فمطران تأنز على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد إليه ، وحاول أن يعود إليه مجدداً لا مقلداً ، وهو ينبسك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده ، وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف . وإنما يعان ثورته على القديم ، واعتباطه بالعصر الذي يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأسايلها في حرية ، كما يتأثر القدماء في إطلاق فطرتهم على سجيتهما ، يكظم فطرته ولا يغشيها بالآستار الخداعة الخلابة . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحاً كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم ، لأنه يمثل شيئاً من

المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى
تستقل فيه الأبيات ، وتتنافر وتتدابر . ويريد أن تكون
القصيدة وحدة ملتزمة الأجزاء ، حسنة التأليف فيما بينها . ثم
هو فوق هذا كله مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ،
ولا عقلا صرفا وإنما هو مزاج منهما .

الحق أنى معجب بمقدمة مطران ، لا أكره منها إلا سجعها
أرأيت أنى لم أخطئ حين أخرت النظر فى شعر الشعراء ،
ووقفت عند هذه المقدمات وقفة قصيرة ! ولكنك توافقنى
على أن هذه المقدمات لا تعطينا شيئا فى جملتها ، فهى تمثل لنا
أذواق الذين كتبوها دون أن تمثل لنا مع ذلك الذوق الأدبى
العام فى هذا العصر ، ودون أن تعرض علينا ما يراه هذا
الذوق الأدبى العام مثلاً أعلى للجمال الفنى فى الشعر ، ولكن
فى مصر شعراء غير شوقي وحافظ ومطران ، لهم دواوين
ولدواوينهم مقدمات ، فمن يدرى لعلنا نظفر فى دواوينهم
ومقدماتهم بما لم نظفر به فيما قرأنا الآن .

يا من نظرت بالدي و شئت عيوب

وحلو بنى البحر من اجل عيبه

المثل الأعلى

«رد»

صديقي ...

رأيتني أردد في هذه الأيام ذكر المثل الشعري الأعلى ،
والذوق الأدبي الحديث ، والمذاهب الفنية للشعراء ؛ فأنكرت
هذه الألفاظ ، أو لم تتبين ما قصدت به إليه فيما تقول . فأنت
تسألني عنها : ماهي ؟ وأين تلتمسها ؟ وكيف السبيل إلى تحقيق
معناها ؟ وعجيب منك هذا السؤال ، وما أنت بالغافل ولا
المحدث في الأدب ، وقد نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة
وأراك الآن قد نيفت على الأربعين ، ان لم يكن يؤذك أن
يعرف الناس سنك ! نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة ،
وسلكت فيه طرقاً مختلفة ، وبلوت منه فنوناً متباينة ؛ بلوت العربي
القديم ، وبلوت أدب العباسيين والأندلسيين ، وأتقنت الأدب
الحديث في مصر وغير مصر ، وتذوقت أدب اليونان والرومان ،
واستمعت بأدب الفرنسيين والانجليز . وكنت وما زلت
أجد لذة قوية حين أسمعك ترد شعر المحدثين إلى أصوله القديمة

مفتتاً في ذلك غواصاً على غرائبه - كما يقولون - وكنت
وما زلت أجد لذة قوية حين أسمعك تعجب بيت من الشعر
العربي أو قصيدة من الشعراء الأجنبي فتعرض ما فيهما من الجمال
عرضاً يزيد بهاء وروعة . وها أنت ذا الآن تسألني عن المثل
الشعري الأعلى، وعن الذوق الأدبي الحديث، وعن مذاهب
الشعراء في الشعر؛ سؤال من لاحظ له من فن، ومن لم يزاوَل
الدراسة الأدبية قليلاً ولا كثيراً .

ما أرى إلا أنك عابث صاحب لهو ودعابة ، أو ما كر
صاحب كيد ، تريد أن تشير نحواً من البحث ترى في إثارتها
شيئاً من النفع . فان تكن عابثاً فأحبب إلى بعثك، وان تكن
ما كراً فأهون على بمكر . ولو أن لي من الوقت سعة
لشاركتك في هذا العبث أو للقيت مكرأ بمكر ، وكيدا بكيد .
تسألني عن المثل الشعري الأعلى ما هو؟ فسل عنه نفسك
حين تقرأ قصيدة للأخطل أو لأبي نواس أو لمسلم بن الوليد
أو للبارودي أو لشوقي . وسل عنه نفسك حين تنظر في
شعر فرجيل أو حين تلتشد شعر فيكتور هوغو . سل نفسك
عن هذا المثل الشعري الأعلى حين تقرأ شعر هؤلاء القدماء
والمحدثين فتجد عند أولئك هؤلاء لذة مختلفة في طبيعتها

تفاوت قوة وضعفاً ، ويتباين أثرها في نفسك تبايناً غريباً .
فالناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون
اللذة الفنية إلا في الجديد ، وهم يخطئون أيضاً حين يرون أن
أصحاب القديم لا يجدون اللذة إلا في الشعر القديم ، فأنا من
أصحاب الجديد ومن أشدهم إلحاحاً في تأييده والدعوة إليه ، ولكنني
على ذلك أجد في قراءة القديم لذة لاتعدها لذة ومتاعاً ~~ليس~~
يشبهه متاع . ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالهما الفني
من القدم والجدة وحدهما ، وإنما استمدها من هذا الروح الخالد
الذي يتردد في طبقات الانسانية كلها ، فيحل في كل جيل منها
بمقدار . وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه ، ويتصور
في كل بيئة بالصورة التي تناسبها . وهو من هذه الناحية مصدر
وحدة وفرقة للانسانية : مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس
مهما يختلفوا على الإعجاب والشعور باللذة القوية . ومصدر
فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه
ويخيل إليك أنه كثير . نعم ، العربي والفرنسي والانجليزي
يشعرون جميعاً باللذة حين يقرأون خصومة أخيل وأجاممنون
لا يحول اختلافهم الجنسي بينهم وبين هذا الإعجاب وهذا
الشعور باللذة ولكنهم على اشتراكهم في الإعجاب واللذة

يختلفون في تذوقهم لهذا الشكل الخاص الذي يتشكل به الجمال
الفنى فى الالياذة . هذا يرضاه وهذا ينبو عنه، وهذا يقف منه
موقف غير المكثرت، ذلك لأن بين هذا الشكل وبين نفوس
هو لاء الناس صلة تختلف قرباً وبعداً ، وتتفاوت قوة وضعفاً
باختلاف الجنسيات والبيئات والعصور . ففى الجمال الفنى كما
ترى وكما يقول الفلاسفة وحدة وكثرة . فأما الوحدة فهى
جوهره ، وأما الكثرة فهى أعراضه . ولكن طبيعة الانسان
قد أرادت ألا توجد هذه الوحدة من حيث هى منفصلة عن
أعراضها وعن مثلها المختلفة التى تصل بينها وبين نفوسنا ، فلا بد
لهذا الجمال من لغة تعبر عنه ومن صورة تحتويه ، واللغات
مختلفة ، والصور متباينة .

واذن فينخيل الى ، وأحسبك كنت ترى معنى هذا الرأى ،
أن المثل الأعلى فى الفن إنما هو هذا النحو الذى يحقق هذا
الجمال الفنى الخالد الواحد فى أحسن صوره وفى أشدها
بالذوق اتصالاً وللنفس ملائمة .

فالالياذة كانت مثلاً أعلى لليونان لأنها حققت لهم هذا الجمال
فى أجمل صورة يونانية ممكنة ، لامت نفوسهم واتصلت بأذواقهم ،
ولكنها لا تحقق لنا نحن المثل الأعلى ، لأنها على حظها من

الجمال الخالد لا تتصل في شكلها وصورتها بنفوسنا وأذواقنا ،
لغتها ليست لغتنا ، وخيالها لا يتصل بحياتنا الحاضرة ، فنحن
نشعر حين نقرأها بالجمال ، ولكننا نشعر شعوراً ناقصاً أقل
من شعور اليونان القدماء به حين كانوا يقرأون الإلياذة .

وشعر الأخطل وأبي نواس حين يجيدان ، يمثل لنا هذا
الجمال الخالد أيضاً ، ولكن هذا التمثيل وإن كان أقرب إلى نفوسنا
وأذواقنا من الإلياذة لا يلائم هذه النفوس والأذواق من
كل وجه ؛ فلغته ليست لغتنا وإن قربت منا ، وخياله ليس
خيالنا وإن كان بينه وبيننا سبب . ونحن نجد في هذا الشعر
من اللذة ما يجده الفرنسيون مثلاً في شعرهم أثناء القرون
الوسطى ، أو في شعر فرجيل وهوراس .

وما أظنك تنكر أن الفرنسيين على إعجابهم بفرجيل
وهوراس يؤثرون عليهما كورنى وموليير وراسين . وهم
يؤثرون الآن على هؤلاء أنفسهم شعر القرن التاسع عشر
وتمثيله ، لأن هذا الشعر والتمثيل أقرب إلى نفوسهم العصرية
ما كان في القرن السابع عشر من شعر وتمثيل .

للقديم إذن جماله نشعر به نحن شعوراً منقوصاً ، وكان
القدماء يشعرون به شعوراً كاملاً ، ويستطيع العلماء الذين

يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم
قدما يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من
الجمال بما كانوا يشعرون به . ولكن هذا على صعوبته وعسره
لم يقسم ولا ينبغي أن يقسم الا لطائفة قليلة جداً من الناس .
وأنت تسرف حين تطلب إلى عامة المتأدين أن يذوقوا شعر
الأخطل وجريز كما تذوقه أنت ، ويسرف أصحاب اليونانية من
الفرنسيين والانجليز حين يطلبون إلى جمهور المتأدين من قومهم
تذوق هو ميروس وبندار كما يتذوقونه هم . ولكننا جميعاً نصيب
ونقصد حين نطلب إلى المتأدين المعاصرين أن تتقارب أذواقهم
في فهم الأدب المصرى الحديث والاعجاب به . ولا يسرف
الممتازون من أدباء الفرنسيين والانجليز حين يطلبون إلى
عامة المتأدين من قومهم أن يذوقوا شعراءهم المعاصرين كما
يذوقونهم هم أو على نحو من ذلك قريب .

نعم هذا حق في نفسه ، ولكنه ليس حقاً حين نريد أن
نلائم بينه وبين الحقائق الواقعة في مصر . ذلك لأن الشعر
المصرى الحديث لا يلائم الذوق المصرى الحديث ؛ فهو من
قسمة العلماء لا من قسمة المتأدين عامة . هو قديم في صورته
وشكله ولغته كشعر الأخطل وجريز والفرزدق في فهمه ويذوقه

الذين قدّر لهم أن يفهموا شعر الأخطل والفرزدق وجرير ،
فأما الذين لم يقدر لهم فهم هذا الشعر ولم يطلب إليهم إلا أن
يذوقوه ذوقاً ناقصاً ، فلا ينبغي أن يطلب إليهم إلا أن يذوقوا
هذا الشعر الحديث ذوقاً ناقصاً أيضاً .

بلى ، هناك فرق بين الشعر ^{العربي} المصري الحديث والشعر العربي
القديم ، فهو يشبهه في الصورة والشكل ، ولكنه يخالفه في الحقيقة
والجوهر . هو يشبهه في اللغة وأنحاء القول والتعبير وضروب
التخييل والتصوير ، ولكنه لا يشبهه في الموضوع ولا في
الأغراض . واذن فلشعر القدماء معنى في أذواقنا لأنه يمثل
حقيقة من الحقائق هي حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها .
ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى ، لأنه لا يمثل حياة القدماء
إذ هو لم ينشأ لتمثيلها ، ولا يمثل حياتنا الحاضرة لأن لغته وشكله
وأنحاءه في التمثيل والتصوير لم تنشأ لتمثيل هذه الحياة . وما أرى
أنك نسيت ما كنا فيه من ضحك وأسى حين قرأنا منذ أعوام
قصيدة شوقي التي يصف فيها انتصار الترك على اليونان في
آسيا الصغرى ، والتي يبدأها بقوله :

✓ الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب !

نعم ضحكنا ، وأسينا حين قرأنا هذه القصيدة . وأضحكنا
مطلعها قبل كل شيء ، فكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة مصطفى
كـال به ، حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابيين
في الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابيين
في الانتصار والانزمام تملأ النفوس إعجاباً ، وحين كان
الشرق في ذلك الموقف الذي كان ذليلاً يشوبه شعور بالعزة
وطموح إليها ، والذي كان أثراً من آثار هؤلاء القواد . ضحكنا
من قياس مصطفى كـال الى خالد بن الوليد .

والحق أنا لا نعرف أمدح شوقي مصطفى كـال حين قرنه
الى الفاتح العربي القديم ، أم ذمه ؟ !

ولم نكد نمضى في قراءة القصيدة حتى ازددنا إغراقاً في
الضحك والأسى ، وكنت تقول لى إن هذه القصيدة أصدق
دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة وفشل
الشعر العربي العصرى عما قصد اليه من إمتاع النفوس
واشعارها لذة الجمال الفنى .

ولما فرغنا من قراءة القصيدة سألتنى ما رأيك في هذه
القصيدة الطويلة ، التى تصف انتصاراً ضخمأ بعد الحرب
الكبرى ، فلا تعرض فى وصفها الطويل المفصل للدفع ولا

للطيارة ولا للتنك ولا لغيرها من أدوات الحرب في العصر الحديث ، وإنما اكتفت بالخنيل والسيف والرمح والدرع ؟
وكنت تسألني ما رأيك في هذه القصيدة التي تريد أن ترفع مصطفى كمال إلى منزلة القواد العظام في العالم ، وانتصاره إلى منزلة الانتصارات العظمى في العصر الحديث فتشبهه وقائمه بيدر ؟
وما رأيك في هذه القصيدة التي أرادت أن تصف ابتهاج الترك خاصة والمسلمين عامة بهذا النصر ، فاذا هي تذكر اهتزاز دمشق واستيقاظ الأيوبيين فيها ، وتهنئتهم للحمدانيين في حلب ؟ وكنيت تقول حقاً لقد ضاق القديم عن أن يكون لباساً يتجلى فيه الجمال الفني الحديث ؟

أحب أن تذكر ذلك ، فإن هذه الذكرى قد تنفع ، لأنها تختصر لك جوابي على سؤالك الذي تريد أن تعرف به ما المثل الأعلى للشعر .

المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر الذي قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً فيأخذوا بنصيبتهم النفسى من الخلود .

ولكنك ستسألني : وما ذوق العصر ؟ وما قيمة الاتصال

بين الشعر والذوق العصري؟ وكنت أحب أن أذكرك بمجالس أخرى كانت يبتنا تجيبك على هذا السؤال. ولكن قوماً غيرك يدعونني إليهم ولهم على مثل مالك من حق، فالى وقت آخر.

— ٤ —

فى الذوق الأدبى

«رد أيضاً»

صديقى . . .

أعود اليك الآن ، بعد أن فرغت من درس فى الأدب القديم ، أعجبنى موضوعه وأرضانى ما قيل فيه . أعود اليك إلى حيث تركتك منذ ساعات ، تسألنى عن ذوق العصر ما هو؟ وما الصلة بينه وبين الأدب؟ وما الصلة بينه وبين المثل الأعلى فى الفن؟ وأنا أتعجل هذه العودة إليك ليتصل آخر الحديث بأوله ، وليكون هذا الكتاب تنمة للكتاب الذى أرسلته اليك ضحى هذا اليوم .

وماذا تريد أن أصنع لك ، وقد قصرت ذاكرتك أو تكلفت لها القصر ، فنسيت أو تناسيت ما كان لنا من مجلس وما كان يبتنا من حديث؟ انك خليك أيها الصديق ألا تعتمد على الذاكرة وحدها ، وأن تتخذ لنفسك هذه العادة التى لا بأس

بها : وهى تقييد الأحاديث العذبة اللذيذة القيمة ان صادقتها
 فى يوميات تعود إليها من حين إلى حين ، فتذكر نفسك
 وأصدقائك وظروفكما المختلفة ، وتصل بينك وبين قديمك
 الخاص وتعينك على أن تتبع تطور عقلك وشعورك ، وانتقالهما
 من حال إلى حال وتأثرهما بالظروف المختلفة التى تحيط بهما
 وتعمل فيهما ، دون أن تحس أنت ذلك أو تلتفت إليه . وكيف
 تريد أن تقضى بين قديم الأدب وجديده ، وأنت لاتستطيع
 أن تقضى بين قديمك وجديدك ؟ لأنك لا تلتفت إلى هذا
 القديم وذاك الجديد ، ولا تشعر باستحالة أحدهما إلى الآخر
 فى ظل ما تخضع له من المؤثرات المادية والمعنوية !

أفهم أن تتطور وتستحيل ، وأن تستبدل رأياً برأى وأسلوباً
 فى الفن بأسلوب ، ولكنى أحب لك أن تشعر بهذا التطور
 وتقدر هذه الاستحالات وتحسب لها حسابهما حين تكتب
 أو تتحدث ، فذلك خليك أن يدفع عنك ما قد تهم به من
 التناقض والاضطراب ، وأنت الآن متناقض مضطرب بعض
 الشيء . وإذا كنت أنا أفهم مصدر تناقضك واضطرابك لأنى
 أعرف من حياتك الخاصة ما لم يعرف غيرى . فليس الناس جميعاً
 مكلفين أن يعلموا أنك قضيت الصيف فى إيطاليا ، وكانت لك فيها

مواقف هزت قلبك بادية الأمر هز أرفيقاً، ثم أخذت تتخلص إليه شيئاً فشيئاً حتى غمرته وعبثت به، ثم أخذت تتقلص عنه قليلاً قليلاً حتى انجملت عنه وتركته فارغاً جافاً، يكاد يحترق من الفراغ والجفاف، ثم عدت إلى مصر ذاهلاً مشرد الخاطر مفطور القلب مضطرب المزاج، ثم عكفت على نفسك تمتحن وتحلل فخر جت بشيء من الشك هو إلى اليأس أقرب منه إلى الرجاء، وإذا أنت ترتاب بكل شيء، وتنكر كل شيء وتزدرى كل شيء. وما احسب أنك ستسترد حظك من اليقين والرضا والأمل إلا أن تعود إلى إيطاليا، فلعل الله أن يجعل لك من العسر يسراً، ومن الضيق سعة ومن اليأس أملاً. ولعل ابتسامة عذبة في «تورينو» ترد إلى قلبك نضرتة الأولى فتستأنف الحياة والتفكير في جد وثقة واطمئنان، وترى في الذوق الأدبي ما كنت تراه منذ أعوام أو شيئاً منه.

ليس الناس مكلفين أن يعلموا من أمرك هذا كله. ولو قد حاولوا ذلك لضقت بهم وضاقوا بك. ولكنك أنت مكلف أن تعلم من أمرك هذا وأن تقدر أثره في حياتك العقلية والنفسية معاً، بل في ذوقك بنوع خاص، فإن لذلك في ذوقك أثراً غريباً. لقد كنت أراك قبل «تورينو» تقدر الأشياء كما

أقدرها ، وتشاركني في الرضا عن بعض الشعر والسخط على بعضه الآخر ، وتحب أن تقف معي موقفاً وسطاً بين أولئك المختصمين الفرنسيين الذين يرى بعضهم جمال الشعر في الموسيقى ، ويرى بعضهم الآخر جماله في المعنى ، وكنت تقول لي : وما يمنعنا أن نقف بين هؤلاء الناس ، ونرى جمال الشعر في التمام الموسيقى والمعنى جميعاً ؟ حتى اذا كانت تلك الليلة أخذت تصل الى منك كتب لارأس لها ولاذنب - كما يقول الفرنسيون - ثم لقيتك فاذا أنت قد تصوفت أوكدت ، واذا أنت لا تذوق من الموسيقى الا ألواناً خاصة تلائم مزاجك هذا المضطرب المحزون ، ولا تذوق من المعاني الشعرية الا ضروباً خاصة ، تلائم أملك هذا الضائع المشرّد .

صدقني أيها الأخ العزيز ، أنك تخضع الآن لازمة نفسية عنيفة ، فما أجدرك أن تهتم رأيك في الناس والأشياء جميعاً . لا تبتئس ولا تظهر هذا الغضب الذي هو أقرب الى الاذعان منه الى أي شيء آخر ، فأنا راض بمزاجك هذا المضطرب محب له ، لأنني أفهمه وأذوق ما يحدث عنه من الآثار ، ولأنني أشاركك في حب ما تحب من هذه الموسيقى وهذه المعاني التي تتصل بالماضي يائسة او كاليائسة من المستقبل .

ومهما أنس فلست أنسى أننا قد أعجبنا معاً إعجاباً لا حد له بتلك القطعة الموسيقية البديعة التي أوقع بها الموسيقى « ديارك » مقطوعة رائعة من شعر « بوداير » هي الذكرى . أحسنا معاً أننا عشنا زمناً في ظل تلك الأروقة الواسعة ، التي كانت تقوم على تلك الأعمدة الفخمة الضخمة ، والتي كانت تنعكس عليها من شمس البحر ألوان لا تكاد تحصى ، والتي كانت تخيل إليك إذا أقبل الأصيل أنها أغوار من البزلت

نعم ، ورأينا معاً أمواج البحر الغنيضة المضطربة تعبت بصور السماء ، وتمزج أصواتها الموسيقية القوية بلون الأصيل الذي يعكس العين . . . نعم ، وشعرنا معاً بهذه اللذة القوية الهادئة في جو صفو وجلال لا حد له ، وبين هؤلاء الاماء المتجردات العطرات اللاتي كن يروحن عن جباهنا بسعف النخل ، واللاتي لم يكن لهن من هم الا تعرف هذا السر المؤلم الذي كان يفيدنا قليلا قليلا . ذقنا معاً جمال هذا الشعر وانسجام هذه الموسيقى واشتراكهما في تصوير هذا المثل الأعلى الذي نطمح إليه ، فإذا لم نظفر به في حياتنا الحاضرة ، وقصرت بنا أجنحتنا عن أن نظير إليها في المستقبل القريب أو البعيد التمسناه في ماضينا ، فإذا لم نظفر به ، وما أحرانا ألا نظفر به ! التمسناه عند أسلافنا

المترفين من أدباء اليونان والرومان وشعرائهم واستمتعنا به كما كانوا يستمتعون به هم أنفسهم ، يوم كانوا يحيونه حياة فيها الحق وفيها الخيال .

ذقنا معاً هذا الشعر وهذه الموسيقى ، وأنت متأثر بمزاجك هذا المضطرب ، وأنا هادئ النفس فارغ البال ، فأنت ترى أن اضطراب مزاجك لم يتطع ما بينك وبينى من صلة نفسية أو فنية وإذن فهوّن عليك ولا تخيل إلى نفسك أنى ساخط أو منكر لما أنت فيه ، إنما أنا رفيق بك حذب عليك أحب أن تنسى «تورينو» أو أن تستأنف حياتك فيها إن وجدت إلى أحد الأمرين سيلاً ، وأحب بنوع خاص أن تقدر أثر «تورينو» فيما لك من رأى الآن فى المثل الشعرى الأعلى ، وفى الذوق الفنى ، وفى مذاهب الشعراء فى الشعر .

الذوق الفنى ... لقد بعدنا عنه أو كدنا نبعده . ومع ذلك فما كتبت إليك الآن إلا لأتحدث إليك فيه ، أولاً ذكرك ما كان بينك وبينى فيه من حديث . ألم تكن تتفق قبل «تورينو» على أن هناك ذوقين فنيين . لكل واحد منا حظ منهما يختلف قوة وضعفاً ، ويتفاوت سعة وضيقاً باختلاف ما لشخصيته من القوة والظهور . كنا نتفق على أن هناك ذوقاً فنياً عاماً يشترك

فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد،
لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم
ويؤلف بينهم . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق
ويقوى ويضعف : فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكاً قوياً ،
وهذا الاشتراك هو الذي يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار
الفنية دون بعض . وهم يشاركون فيه إلى حد ما جيرانهم
أهل الشام وفلسطين ، ويشاركون فيه إلى حد أضعف جيرانهم
من أهل أفريقيا الشمالية . ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء
ببعض الآثار . ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها
الآخر ، ويعجبون وحدثهم بطائفة من الآثار الفنية . وكنا
نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحياناً ، ويتأثر في ضيقه هذا
بالظروف التي تحيط بالطبقات والجماعات . فأهل مصر على
اشتراكهم في هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت
بيئاتهم وجماعاتهم . فلاهل الأزهر ذوق خاص يكادون
يستبدون به ، وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشيء ذوق
مدرسة القضاء ودار العلوم ، وللجامعيين ذوق خاص أو قل
أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزي ، وآخر يتأثر
بالذوق اللاتيني ، ذوق يتأثر بالعلم ، وآخر يتأثر بالأدب ، وثالث
يتأثر بالتاريخ ، ورابع يتأثر بالفلسفة ، وعلى هذا النحو ، ثم كنا

نتفق على أن هناك ذوقاً آخر فنياً يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية، أو هو مظهر ومرتبة يمثلها تمثيلاً صادقاً يستبد به الفرد، أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره. وكنا نتفق على أن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان بأن القصيدة الشعرية الرائعة، تنشأ فنشترك في الإعجاب بها، أو قل في مقدار من الإعجاب بها عام، سواء أو كأنه سواء بيننا. ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها، أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا أن يقدره.

كنا نتفق على هذا كله، وكنا نتفق على أن الحياة الفنية إنما هي مزاج من هذين الذوقين، فيه الوفاق حيناً وفيه الصراع حيناً آخر، وكنا نتفق على أن هذا الذوق العام هو الذي يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية، وهذه الأذواق الخاصة هي التي تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية.

كنا نتفق على هذا كله، ونحاول في شيء غير قليل من التوفيق تطبيقه - كما يقول المعلمون - على ما ينشأ شعراً أو نأمن الشعر وكتابنا من النشر. وأراك الآن تسألني عن الذوق، ماهو؟ فهل نسيت هذا كله؟ لا ولكنها «تورينو» قد جعلت بينك وبينه

ستاراً ، وأنا زعيم أن أزيل هذا الستار ولو إلى حين .

تذكر يوم قرأنا قصيدة شوقي :

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جد دخال العرب ! ؟

كنا جماعة منا العامة ومنا الطبوش ، منا المصرى ومنا

السورى ، منا المسلم ومنا غير المسلم . وكنا جميعاً مرتاحين

الى انتصار الترك ، متشوقين إلى ما يسجل هذا الانتصار ويشيد

به . وتناول شاب منا الصحيفة فأنشد القصيدة فى شيء من

الحماسة غريب ، وفى شيء من الاتقان فى الصوت وإخراج

الحروف وتقطيع الوزن وقذف القافية كما تقذف الحجارة

فرضينا وأعجبنا ، وتحمس بعضنا فصفق وافترقنا على أنها قصيدة

رائعة . ثم التقينا فى مجلس من هذه المجالس التى أدخل فيها

إليك وحدنا فتحدث فى حرية ، وينتهى بنا الحديث فى كثير

من الأحيان إلى ما يكره كثير من الناس . فأعدنا قراءة القصيدة

وحينئذ لاحظت أنت ولاحظت أنا : أن إعجابنا الأول لم يكن

إلا ظاهرة اجتماعية ، وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص

تناقضاً غير قليل هذه المرة . ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة

الثانية قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التى كانت

تحيط بنا ، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصي . وذوقنا الشخصي
معقد - كما تعلم - فيه أثر الأدب العربي القديم ، وفيه أثر الأدب
العربي الحديث ، وفيه أثر الثقافة مركبة مختلفة العناصر . فليس
غريباً أن يكون حكمه في الشعر مخالفاً لحكم الجماعات المختلطة .
وأذكر وتذكر أنت أيضاً أننا لهُونا يومئذ باخضاع هذه
القصيدة لهذا الذوق المعقد ، فضحكنا وأغرقتنا في الضحك
والسخرية من هذه الصور العتيقة البالية تتخذ لتصوير الحياة
الجديدة الحاضرة ، وضحكنا بنوع خاص من هذا البيت :

قد فتم بالرياح الهوج مسرجة
يحملن أسد الشرى في البيض واليبس

وأضحكتنا هذه الرياح المسرجة وإن كان المراد بها الخيل .
وأضحكتنا أسد الشرى على هذه الخيل وإن كان المراد بها
فرسان الأتراك ، ثم قصدنا إلى الانصاف وقلنا : شاعري قلد
القدماء ، فلا ينبغي أن ينظر إليه إلا بأعين القدماء . ولا ينبغي أن
يتماس إلا بمقاييسهم . وكان هذا النوع من الانصاف في نفسه
قضاء على القصيدة فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث
ومقاييسه . ولجأنا إلى النقد القديم ، فاما أنت فلبست ثياب
أبي العباس أحمد بن يحيى ثعالب ، زعيم النحويين في الكوفة

آخر القرن الثالث للهجرة ، وأما أنا فلبست ثياب ابى العباس
محمد بن يزيد المبرد زعيمهم فى البصرة وفى العصر نفسه ، وكان
هذان الرجلان يختصمان دائماً . وكنا إذ وضعنا أنفسنا
موضعهما نريد أن نختصم لعل اختلافنا ينفع أمير الشعراء .
فأما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة إلا من الألفاظ ، ليس
وراءها شيء . وجعلت أضرب لك الأمثال بشعر القدماء
وبشعر الأخطى خاصة فى تصوير الهجوم والانتصار والهزيمة
العامة والهزيمة الفردية ، وكنت أقف بك بنوع خاص عند
الرأية التى مطلعها :

خَفَّ القَطِينَ فراحوا منك أو بكروا

وازعجتهم نوًى فى صرفها غيرُ

والتي مدح فيها الأخطى عبد الملك وبنى أمية وصور

جيش عبد الملك زاحفاً على العراق وانتصاره وانهزام القيسيين

أنصار ابن الزبير فى الجزيرة . وكنت أقف بك عند الرأية

الأخرى التى مطلعها :

ألا يا اسلى يا هند هند بنى بدر

وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

والتي قصد بها الشاعر إلى مثل ما قصد إليه فى الرأية

الأخرى ، ولكنه أبدع في تصوير الهزيمة الفردية ، فصور لنا فارساً يلهب فرسه والرماح تنوشه ، وهو ينغمس معها في السراب ، والسراب ينجاب عنه وعنها ، وهو يحثها ويفديها بأمه ان مضت في جريها الى العصر ... كل ذلك فيما تذكر من لفظ متقن ، سهل رصين متخير . وكنت أقول لك إن هذا الشعر يلائم ذوق العرب في عصره ، ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل ، وهو يعجبنا الآن ويرضينا فيمثل لنا حظاً من هذا المثل الأعلى . وكنت تسمع لي فترضى مرة وتنكر أخرى . ثم سكت حيناً وسألتني : وأين أنت من قصيدة أبي تمام التي يمدح بها المعتصم وقد فتح عموريه ؟ . قلت ذلك فوجمت لك ثم رأينا معاً أن شوقي انما اتخذ قصيدة أبي تمام هذه نموذجاً حين أراد أن ينظم قصيدة في انتصار الترك .

ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجاً في اللفظ والمعنى ، وفي الوزن والقافية ، فطلع أبي تمام :
السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

فهي من البسيط وقافيتها الباء وروها مكسور ، وكذلك قصيدة شوقي . فأبو تمام إذن هو الذي قدم الى شوقي قوافيه

وشياً غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، وبخاصة هذا التشبيه الذى كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم ، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبي وهو يجاهد للدين ، بينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبي يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه . أخذ شوقي هذا التشبيه من أبي تمام فألصقه بمصطفى كمال ، ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجاً على الخليفة . ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن . ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيول ، وإنما كان هذا أقل أدوات الحرب خطراً . وأساء شوقي اختلاس هذا التشبيه فقد كنا نرى أن أبا تمام أورده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط ، وأورده شوقي مورد اليقين ، وأن أبا تمام أورده فى بيتين وأورده شوقي فى أبيات . قال أبو تمام :

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

وقال شوقي :

يوم كبدر نخيل الحق راقصة
على الصعيد وخيل الله في السحب

غر تظللها غرام وارقة
بدرية العود والديباج والعذب

نشوى من الظفر العالي مرنحة
من سكرة النصر لا من سكرة النصب

تذكر الأرض مالم تنس من زبد
كالمسك من جنبات السكب منسكب

حتى تعالى أذان الفتح فاتأدت
مشى المجلى إذا استولى على القصب

وكنت تقول لى : إن البيت الأول من بيتى أبى تمام يعدل
قصيدة شوقي كلها . وكنت أرى أن من الظلم أن يقاس هذا
الشعر الذى لا يدل على شئ إلى بيت كهذا البيت فيه الشك
واليقين معاً ، وفيه المبالغة والاقتصاد معاً ، وفيه اللفظ الرصين
يدل على المعنى الجيد .

وكنت تقول لى : أليس من العجب أن يأخذ شوقي
معنى قاله أبو تمام فى بيت واحد ، فيذيه فى أبيات دون أن
يصل إلى شئ ؟ قال أبو تمام :

فتح تفتّح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وقال شوقي :

لما أتيت بيد من مطالعها

تلقت البيت في الأستار والحجب

ثم استمر شوقي يصف ابتهاج العالم الإسلامى فى عشرة
آيات زلزلت فيها الأرض زلزالها فسعى بلد إلى بلد
واضطدمت مدينة بمدينة ، وتخاطب الموتى فى دمشق وحلب
والأحياء فى الهند ومصر ، كل ذلك ولم يظفر بقول أبى تمام :
فتح تفتح أبواب السماء له

وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وكنتم تقول لى : إن فى قصيدة أبى تمام من الشعر

ما لأم الذوق القديم ويلائم الذوق الحديث ، ويعجب به

الشرق والغرب معاً ، لأنه الشعر فى نفسه ، فيه قبس من هذا

الجمال الخالد الذى هو فوق الزمان والمكان والجنسيات ،

قال أبو تمام يصف اضطرام عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها

للنار يوم ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى

يقله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلايب الدجى رغب

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب !

ضوء من النار والظلماء عاكفة

وظلمة من دخان فى ضحى شحب

فالشمس طالعة فى ذا وقد أفلت

والشمس واجبة فى ذا ولم تجب

وكنت تقول: إن بيتاً واحداً من هذا الشعر يزن ديوان

شوقى كله وهو قوله :

حتى كأن جلايب الدجى رغب

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ولو أنك التمت الشعر فى قصيدة شوقى هذه لما وجدت

منه شيئاً ، فان أبيت فدلنى عليه !

وكنت تقول : كان البديع فى عصر أبى تمام يجب

جمهرة المتأدين ، فأخذ منه أبو تمام بحظ لا يخلو من إسراف ،

وهو لا يعجبنا ، فما اضطرار شوقى إليه لولا التقليد السخيف ؟

وأى جمال فى قوله :

ما كان ماء « سقاريا » سوى سقر
طغت فأغرقت الاغريق في اللهب

لو أنه وضع اليونان موضع الاغريق لاجتنب هذا الجنس
الثاني ، ولاحتفظ لبيته بشيء من الجمال الشعري ، فالصورة
لابأس بها ، ولكن جناسين خليقان أن يفسدا أجمل
الصور وأروعها .

ثم أخذنا ننقل في القصيدتين من بيت إلى بيت حتى
اتهمنا إلى أن ذوقنا القديم نفسه على تحرجه لا يستطيع ان يسيغ
قصيدة شوقي ، بعد ان أبى ذوقنا الحديث ان يسيغها ! وكانت
خلاصة رأيك ورأيي ، أن هذه القصيدة إنما هي أشبه شيء
بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفال مذهب الحاكاة للنماذج الفنية
التي تلقى اليهم ، فيوفقون في الصورة ويخطئون الموضوع .

أتذكر هذا كله ؟ واذا كنت تذكره فأنت تذكر رأيك
ورأيي في الذوق الأدبي ، أما أنا فما زلت محتفظاً برأيي .
وأما أنت فقد نسيت رأيك حيث تعلم ، ولعلك تجده إذا أقبل
صيف هذا العام .

شعراؤهم !

وما رأيك في أن تدع اليوم شعرنا الحديث وشعراءنا
المحدثين ، لنقف عند طائفة من شعراء الفرنجة ، نرى كيف
يشعرون ، وكيف يعلنون شعورهم إلى الناس ، وكيف يلائمون
بين أذواقهم الخاصة وبين أذواق من يتحدثون إليهم من القراء ،
وأنا أعلم أن ليس هذا بالشئ اليسير ؟ فلو أني حدثتك عن
هؤلاء الشعراء دون أن أنقل إليك شيئاً من شعرهم لأضعت
وقتك ووقتي ، ولكان حديثنا عبثاً لا خير فيه . وإذن فلا بد
من أن أترجم لك طائفة من هذا الشعر الأجنبي وأعرضه
عليك نماذج أتخذها موضوعاً لأحاديث مقبلة .

ولكن أتظن أمر هذه الترجمة يسيراً ؟ أما أنا فأعترف
بأنه أشق وأعسر مما كنت أقدر ، فالذوق الغربي مخالف من
وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغييره وتطوره . وفي اللغات
الأجنبية مرونة ويسر لم يتاحا بعد للغتنا العربية . ومن هنا
كانت في الشعر الأجنبي خاصة ، والأدب الأجنبي عامة صور
قد يعسر جداً نقلها إلى اللغة العربية ، حتى إذا نقلت لم نسفها ولم
نطمئن إليها نفوسنا وآذاننا . ومع ذلك فهي تعجبنا وترضيها

يسر هذا الكلام مع رسلهم ولا يصح مع الآداب

كل الرضا حين نراها في لغاتها الأجنبية الخاصة . ومصدر ذلك فيما نعتقد : أننا لم نتعود أن نرى في لغتنا العربية مثل هذه الصور . وما هي إلا أن نكثر الترجمة والنقل ونجد فيهما حتى نألف هذه الصورة ويتأثر بها ذوقنا ، ونحاول أن نحتذيها ونحاكيها ، فلنبداً غير خائفين ولا مترددين .

ولن أترجم اليوم إلا مقتوعات قصاراً قصد بها أصحابها تصوير طائفة من عواطفهم الخاصة في ظروف خاصة ، حتى إذا أسغت هذا النوع من الشعر وألفت قراءته والاستماع له كان من اليسير أن ننقل بك إلى ترجمة القصائد الطوال توضع في الأغراض ذات الخطر .

وأنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير Baudelaire التي سماها : (خلوة إلى النفس) والتي تحدث فيها إلى أله . وأحب أن تقرأها في شيء من التفكير والروية ، وأن ترى معي كيف استطاع الشاعر أن يتحدث إلى أله في هذه الدعة والاذعان والازدراء ، وأن يصور أثناء هذا حديث الطبيعة التي تحيط به ، ويمثل ما بين هذه الطبيعة وبين

نفسه في هذه اللحظة التي يصفها ، فهو إذن عند ما يخلو الى نفسه لا يقطع الصلة بينها وبين الطبيعة . بل كل ما يستطيع أن يصل اليه هو أن يحاول اعتزال الناس لحظة ، ولكنه يعتزل الناس ليتصل بالطبيعة اتصالاً قوياً ، قال بودلير :

خلوة الى النفس !

شيئاً من الهدوء والدعة أيها الألم !
لقد كنت تبتغي المساء ، فهاهو ذا يهبط ، فانظر اليه !
هذا جو مظلم يغمر المدينة ، يحمل الطمانينة إلى قوم والهم
إلى آخرين !

بينما أوشاب الناس يحنون الندم من اللهو الدنيء ، يدفعهم
إليه سوط اللذة ، هذا الجلال الذي لارحمة له ، اعطى أيها الألم
يدك وتعال هنا بعيداً منهم !

انظر الى السنين الخالية مظلة في أثواب بالية من طنف السماء !
وانظر الى الأسف المبتسم تنشق عنه أعماق الماء ! وإلى
الشمس المحتضرة تنام تحت قوس من أقواس هذا الجبور ،
واسمع أيها الألم العزيز لليل الحلو يمشى وكأنه كفن طويل
ينسحب في الشرق !

وانظر الى هذه المقطوعة الأخرى للشاعر نفسه ، وقد سماها «النافورة» وهى من مشهور شعره الذى تناوله الموسيقيون فأبدعوا فى توقيعه ، كما أبدع هو فى تصويره ، ولا تحكم عليه بهذه الترجمة فتظلمه ، ولكن احكم عليه ان شئت بنصه فى الفرنسية ، وبالصورة الموسيقية التى استطاع الموسيقيون أن يحكوه بها . وأحب أن تقف بنوع خاص عند هذا التشبيه الذى تدور عليه المقطوعة كلها ، فصاحبنا قد رأى النافورة ورأى الماء يصعد منها فى قوة كأنه باقة من الزهر حتى اذا انتهى به التصعيد إلى أقصاه عاد فتساقط على الأرض قطرات عراضاً كل ذلك على تأثره بضوء القمر . رأى هذا فأعجبه وإذا هو يثير فى نفسه معنى آخر متصلاً بحبه وحزنه لهذا الحب ، وإذا هو يشبه نفس صاحبتة حين يحفزها الهوى ، وتملكها العاطفة فتسمو إلى أسمى أطوار الشوق ، ثم يأخذها القصور الانسانى فتعصف وتهبط وإذا هى قد انتهت إلى هذا النوع من اللذة الذى ينتهى اليه الحب عادة شبه هذه النفس بهذا الماء المندفِع من النافورة ، وعسير علينا نحن أن نتصور النفس كما تصور ها بودلير . ولكننا مع ذلك عند ما نقرأ هذا الشعر ، ولا سيما فى نصه الفرنسى لا نملك أنفسنا من الإعجاب والرضا ، ثم انظر إلى

آخر هذه المقطوعة كيف تحدث الشاعر فيه إلى الطبيعة في
طور من أطوارها ، وكيف اتخذها مرآة لحبه الحزين .

النافورة

في عينيك الجميلتين سقم أيتها العاشقة المسكينة !
دعهما كذلك زمناً لا تفتحيهما دعهما في هذه
الهيئة الفاترة كما فاجأتها اللذة !
هذه النافورة في الفناء لها أزيز لا ينقطع في الليل ولا في
النهار ، يستبقى في هدوء هذا الذهول الذي غمرني به الحب
منذ الليلة !

هذه الباقة التي تنفتح في زهر لا يحصى ، والتي يزينها القمر
المبتهج بألوانه ، تساقط كأنها مطر من دموع ثقال !
كذلك نفسك التي يحرقها برد اللذة الملهب ، تصعد
سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة ، ثم ترد وقد
أحاطها الضنى موجة من الفتور الحزين تنحدر من طريق
خفية إلى أعماق قلبي !

هذه الباقة من دموع ثقال !
إيه أيتها التي يخلع الليل عليها هذا الجمال ، أحجب إلى بأن

اسمع - مائلا نحو ثديك - هذه الشكاة المتصلة التي تنوح
في الحوض !

أيها القمر ، أيها الماء المصطفق ، أيتها الليلة المباركة ، أيها
الشجر يهتز في خفة ، إنما اكتئابكن النقي مرآة ما أجد من حب !
هذه الباقة من دموع ثقال !

ثم لندع الآن بودلير ، ولننتقل إلى شاعر آخر هو سولي
بريدوم Sully Prudhomme . ولنبدأ من شعره بهذه المقطوعة
المشهورة التي ترجمتها لك ، دون أن أغير شيئاً من وضعها الفرنسي ،
محملاً لغتنا العربية في ذلك بعض المشقة . وقد أراد الشاعر أن
يصور في هذه الأبيات إعجابه بالعيون الحسان ، وحزنه على
ما يملؤها من الظلمة حين يدركها الموت .

العيون

زرق أو سود ، كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ! عيون
لا تحصى رأين الفجر ، قد انطوت عليهن أعماق القبور
والشمس ماتزال تشرق !

ليال أودع من النهار أبهج عيوناً لا تحصى ، وهذه
النجوم ماتزال تلمع ، وقد ملأت الظلمة تلك العيون !

لهفى ! أتراها فقدت لحظها ... ! كلا كلا ، ليس الى هذا
سبيل ، إنما تحولت الى بعض الوجوه ، نحو سبيل ما يسمونه
الغيب !

وكما أن النجوم تفارقنا حين تنحدر ، ولكنها تظل في
السماء ، فللحدق غروبها ، ولكن ليس حقاً أنها تموت !
زرق أو سود كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ناظرات من
وراء القبر إلى فجر عريض ، تلك الأعين التي أغمضت ما تزال
ترى !

وهذه المقطوعة الأخرى التي يمثل فيها الشاعر في لفظ
مذهب وقوة لاحد لها ، طموحه إلى المثل الأعلى وعجزه عن
الوصول إليه وثقته بمستقبل الانسان .

المثل الأعلى

القمر مكتمل والسماء مشرقة تملؤها النجوم ، والأرض
شاحبة . ونفس الكون تملؤ الفضاء !
وأنا أتبع النجم الأعلى ذلك الذي لا يرى ، ولكن ضوءه
يعبر الأجواء ، حتى يصل الى حيث نحن فتبتهج به عيون
جيل آخر !

فإذا لمع يوماً هذا النجم الذى هو أزهى النجوم وأناها
فقل له : إني أحبيته يا آخر أجيال الناس .

ثم هذه الأبيات التى يشبه فيها الشاعر صدور البكاء عما
يستكن فى أنفسنا من الحزن والحنان ، اللذين تهيجهما بعض
العواطف ، بتساقط الندى الذى يتكون فى الهواء ثم تسقط
به رطوبة الجو !

السهل الندى

أنا ذاهل فى قطرات الندى التى وضعتها يد الليل الرطبة
على خمل الزهر تأتلف لآلىء فى خفة !
من أين جاءت هذه القطرات المضطربة ؟ ليست السماء
مطرة ! والجو صحو ! ذلك أنها كانت كلها فى الهواء قبل أن
تتكون !

من أين جاءت دموعى ؟ كل شعلة فى أعماق السماء حلوة
هذا المساء ! ذلك أنى كنت أضمرهن فى نفسى قبل أن
أحسن فى عيني !

إن فى نفوسنا لحناناً تضطرب فيه الآلام جميعاً ، ورب
مسة رفيقة هاجتها فأنبئت فيها البكاء !

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثل فيها الشاعر أحب
أوقات الحب إليه، وأشدّها أثراً فى نفسه وأبقاها ذكرى فى قلبه.

ساعات الحب

ليست خير ساعات الحب تلك التى تقول فيها إني أحبك
إنما هى ساعة الصمت المتصل الذى لا يكاد ينقطع ،
إنما هى فيما بين القلوب من توافق سريع خفيف ،
إنما هى فى القسوة المتكلفة والعفو الحقيقى !

إنما هى فى قشعريرة الذراع توضع عليها اليد المضطربة .
وفى الصحيفة يقلبها المحبان معاً ، على أنهما لا يقرّ أنها
ساعة فذة يقول فيها الفهم المطبق بحيائه وحده شيئاً كثيراً ،
يتفتح فيها القلب على رفق كما ينشق الكم عن الوردة !
يتنسم فيها المحب أرج الشعر فكأنما فاز بأعظم الزلفى !
ساعة الحنان الحلو حين يكون الاجلال نفسه اعترافاً
بالحب !

وقد أطلت عليك ، ولا بد مع ذلك من العودة إلى هذين
الشاعرين وشعراء آخرين بالنقل عنهم حيناً والتحدث عن
شعرهم حيناً آخر .

بودلير Baudelaire

الحرية والفن

عرضت عليك منذ أسبوعين صوراً شعرية لشاعرين من شعراء فرنسا في القرن الماضي. وقلت إنى قد أحدثك عن هذين الشاعرين في فصل آخر، وأنا أريد أن أبر بهذا الوعد، ولكن البر بهذا الوعد ليس بالأمر الهين ولا بالشىء اليسير. وأول صعوبة تعترض سبيل هذا البر أن الحديث عن هذين الشاعرين في فصل واحد شىء لا سبيل إليه فأمرهما أطول وأدق من أن يلم به في فصل من الفصول وهما مختلفان في طبيعتهما ومزاجهما بل في أغراضهما الشعرية. فلنكتف بأحدهما اليوم وليكن صاحبنا بودلير.

ولكن الحديث عن بودلير في نفسه عسير شاق. فأمره من الطول والدقة والتعقيد بحيث يضطرنا إلى أن نعرض عن أشياء كثيرة ولا نلم منه إلا بالقليل، وفي هذا القليل نفسه مشقة وعسر. فقد كانت حياة هذا الشاعر شاقة عسيرة مثيرة للخصومات منذ أولها إلى أن انتهت، وما تزال الخصومات قائمة حوله إلى الآن، وأحسب أنها ستظل قائمة إلى مستقبل بعيد.

نشأ هذا الشاعر في أسرة متوسطة ، كان أبوه معلماً في
أحدى المدارس الثانوية في باريس حين ولد سنة ١٨٢١ .
ومات عنه أبوه ولما يتجاوز السادسة من عمره وترك ثروة
ليست بذات خطر . وقد تزوجت أمه من ضابط في الجيش
ظل يرتقى حتى انتهى إلى أعلى المراتب العسكرية . ونشأ الطفل
في حجر هذا الضابط ، ولكنه نشأ نشأة لم تخل من القهر
والعنف والضيق ، فقد كان يكره هذا الرجل الذي خلف أباه
ويتبرم بماله عليه من سلطان . وكان كرهه لهذا الرجل يعرض
الصلة بينه وبين أمه لشيء من السوء والاضطراب ، فكان ذلك
ينغص عليه حياته ويؤذى نفسه الناشئة ويحجب إليه الوحدة .
ويبغض إليه الناس عامة وأسرته خاصة . وكان يكفي أن يتبين
ميول هذا الرجل لیبغضها وينصرف إلى نقائضها . وكان هذا
الرجل معتدل الميول ، مطامعه تشبه مطامع أوساط الناس .
وهى إلى المحافظة والتشدد فيها أقرب منها إلى أى شيء آخر .
فكان هذا كافياً أن ينشأ صبيّاً مبغضاً للمحافظة ميالاً إلى
التطرف . ولم يكن صبيّاً تلميذاً نجيباً ولا طالباً بارعاً . وإنما
كان من أوساط التلاميذ والطلاب ظفر بالشهادة الثانوية
فى شيء من المشقة والجهد . ولم يكذب يتم درسه حتى ظهر

الخلاف عنيماً بينه وبين أسرته . كانت أسرته تحب أن توجهه نحو الحياة العاملة المنتجة فأعلن هو إليها أن يحترف حرفة الأدب . وأنكر عليه ولية هذا الميل وأصر هو عليه ولكنه كان قاصراً فلم يتمكن مما أراد وأرسلته أسرته إلى الهند فأقام فيها عشرة أشهر . ثم عاد وقد رأى البحر والشرق والشمس وأما غريبة وحياة لم يكن له بها عهد ، وأطواراً اجتماعية لم يكن يقدرها .

وما هي إلا أن بلغ رشده واستطاع الاستمتاع بحريته حتى اعتزل أسرته واندفع في حياة تخالف كل المخالفة ما كان يطمع فيه ولية من المحافظة والاعتدال . عاشر الشعراء والمصورين والمثاليين وكتاب القصص ، وأخذ يتكلف من الأزياء والأطوار ما جعله موضع نظر الناس جميعاً ، ينظرون إليه دهشين منكرين ، ويسمعون له فيزداد دهشهم وانكارهم لما كان يلقى من ضروب الكلام المخالفة لما للناس من أحكام وقيم وأخلاق وتصور للأشياء . وكان صاحبنا يصطنع الأفيون والحشيش مع جماعة من أصدقائه الفنيين ، فلا يزيده ذلك إلا شذوذاً في الأطوار . وقد أسرف في ثروته الضئيلة فأوشكت أن تنضب ، واضطرت أسرته إلى أن تحجر عليه

واضطرب هو إلى أن يشتغل بالصحافة الأدبية ليوسع على نفسه وعرض له قصص الكاتب الأمريكي المعروف ادجار پو (Edgar Poe) فكلّف به وأخذ في ترجمته إلى الفرنسية . واتصل بالشعراء الرومانتيك وتأثر بهم ، وكان في كل هذا ذا شخصيتين متميزتين : أحدهما هذه التي يراها الناس والتي اختصرتها لك في هذه الأسطر ، والأخرى شخصية خفية عاكفة على نفسها تفكر وتقدر وتألم وتشكو ، ولكن في سر وتكتم .

وفي سنة ١٨٥٥ أخذت هذه الشخصية الثانية تظهر على استحياء . وذلك حين قدم الشاعر مقطوعات من شعره إلى « مجلة العالمين » فنشرتها مع شيء من التحفظ والريبة والبراءة من التبعة الخلقية لهذا الشعر الغريب .

وفي سنة ١٨٥٧ ظهرت هذه الشخصية فجأة فدهشت لها فرنسا كلها . دهش لها الشعراء والفنيون ، ودهش لها أوساط الناس ، واضطربت لها الجماعة الفرنسية ثم أنكرتها وتولت النياحة والقضاء هذا الانكار ، وحكم على الشاعر بغرامة قدرها ثمانمائة فرنك ، وحكم على ديوانه الذي ظهرت به هذه الشخصية بأن تحذف منه مقطوعات اعتبرت مخالفة للأخلاق

أما الشعراء فقد أنكروا الشاعر ولكنهم أحبوه : أنكروه لأنه استحدث لهم شيئاً جديداً ، وأحبوه لأن هذا الشيء الجديد نفسه كان قيماً ممتعاً . واشتد الجدل منذ ذلك الوقت حول الشاعر ومذهبه وأغراضه الشعرية . واضطرب الشاعر نفسه في الدفاع عن موقفه . فصانع الجمهور حيناً وسكت عن الدفاع حيناً آخر ، واحتج عند بعض الخاصة لمذهبه الشعرى في صراحة وإخلاص . واختلفت على الشاعر ظروف الحياة فلقى ضرباً من اللين والشدّة . وانتهى به الأمر إلى بلجيكا فأقام فيها حيناً ثم أعيد مريض الأعصاب إلى باريس فمات فيها سنة ١٨٦٧ .

هذه خلاصة شديدة الإيجاز لحياة بودلير ، وهى على أسرافها فى الإيجاز تعطيك منه صورة أقل ما توصف به أنها غريبة ، وقد أثارت حياة بودلير وآثاره الأدبية مسألة كثير فيها القول وسيكثر فيها القول لأنها من هذه المسائل التى لا يتفق عليها ، أو بعبارة أدق من هذه المسائل التى سيظل الخلاف فيها قائماً أبداً بين الفرد والجماعة ، ولا سيما حين يكون هذا الفرد على حظ من التفوق والنبوغ ، هذه المسألة هى مسألة

الحرية والفن . ولكنك لن تقدر هذه المسألة حتى تعلم أن
الديوان الذى أثارها ووقف من أجله الشاعر أمام القضاء
كان يحمل هذا العنوان الغريب : « أزهار الشر » Les Fleurs
du mal ، وهو يتألف من مقطوعات شعرية قصار ، عرض
فيها الشاعر لضروب من الشر المادى والمعنوى ففصلها وحللها ،
واستخرج منه فى قوة وفن بديع صوراً شعرية رائعة ، فالمسألة
هى : هل يملك الفن هذه الحرية التى تتيح له أن لا يحفل
إلا بنفسه وبالجمال من حيث هو جمال ، سواء أوافق فى ذلك
ما ألف الناس من أخلاق ونظام ودين ، أم لم يوافق ؟
أما بودلير فكان فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين
الخاصة من الأدباء يجيب : نعم ! وأما خصومه وهى الجماعة
كلها ومعهما نظمها الدينية والخلقية والسياسية فكانوا يجيبون :
لا أو سجل القضاء هذا الجواب . ولكن الأدباء الفرنسيين وعلى
رأسهم زعيمهم يومئذ وهو فكتور هو جو أنكروا حكم القضاء
واتهموه بالظلم . ولا ننس أن هذا الحكم صدر فى ظل
الامبراطورية الثانية ، أى فى جو لم يكن جو حرية وإنما كان
جو عسف وجور . على أن من الحق أن نلاحظ أن بودلير
حاول فى اثر هذا الحكم أن يصانع الجمهور والجماعة والقضاء

فكان يقول : إن هذه الصور الشعرية لا تعبر عن آرائه وأغراضه في الحياة، وإنه لا يخالف الناس فيما يرون وما يعتقدون فيما يتصل بحياته العملية والعقلية والشعورية، وإنما هذا الديوان صور فنية قصد إلى إظهارها ، كصانع يجرب نوعاً من الصناعات لا أكثر ولا أقل . كان يقول هذا مصانعة وتقية ، ولكنك رأيت أن هذه الصور كانت في حقيقة الأمر مثلاً لحياة الشخصية الداخلية . فنحن نستطيع الآن أن نقطع بأن الشاعر لم يعتمد إلى هذه الموضوعات ولا إلى هذه الصور ليعالجها معالجة موضوعية صرفة كما يقولون ، وإنما هي قطع من نفسه تمثل شخصيته الياسة البائسة المتألمة بالحب ، الراغبة في الموت المشفقة منه في وقت واحد . وفي الحق أن هذا الديوان يدور كله حول أشياء ثلاثة هي : الحب والالأم والموت . والشاعر لا يكاد يحس شيئاً من هذه الأشياء دون أن يحس معه الشيتين الآخرين . فهو إذا ذكر الحب ذكر معه الالأم والموت ، وهو إذا ذكر الموت ذكر معه الالأم والحب ، وهو في كل ذلك حرجى مجازف يتخير أبشع الصور وأقبحها وأشدّها تأثيراً " في النفس من هذه النواحي البشعة القبيحة . وهو مادي التصور ، لحسه المادى أثر قوى في شعره ولا سيما حس اللبس والشم

والبصر ، فهو يعرض عليك هذه الصور البشعة التي يحسبها الشم
أو اللس أو البصر في الأجسام الهالكة المتحللة و « أزهار
الشر » هذه التي يشتمل عليها ديوانه أزهار فيها جمال قوى رائع ،
ولكنه في الوقت نفسه بشع مخيف تضطرب له النفس وتشمئز
في كثير من الأحيان فهناك مسألتان يثيرهما شعر بودلير :
إحداهما قدمتها لك وهي : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة
بالقياس إلى الأخلاق والسياسة والدين وما إليها من النظم
الاجتماعية ! وجواب هذه المسألة طبيعي : فأما أصحاب الفن
فيقولون نعم ، لانهم يطالبون بحريتهم في أقصى حدودها . كما
يطالب العلماء بحريتهم العلمية في أقصى حدودها وأما الحكومات
والبرلمانات وحماة النظم الاجتماعية والسياسية فيجيبون : لا .
وجوابهم هذا يختلف باختلاف حظوظهم من المحافظة
والاعتدال والتطرف . وما أرى إلا أن هذا الخلاف
سيظل أبداً .

ولست أحب أن أعرض رأيي فيه الآن ، ولا أن أقول
فيه نعم أو لا ، فلست بحمد الله فنياً ، ولست بحمد الله من حماة
النظم الاجتماعية على اختلافها ، وانما أنا أحد الذين يشهدون ،
وحسبي أن أطالب للعلماء بحريتهم العلمية .

أما المسألة الثانية التي يثيرها شعر بودلير ، فأجل من هذه
المسألة خطراً ، وأخلق منها بعناية الكتاب والادباء عندنا .
وكم أحب أن أعرف رأى هيكل والعقاد . وهى : هل يستطيع
الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ويستخلص منه صوراً فنية
جميلة وبعبارة أدق وأوضح : هل فى الشر جمال يصلح
موضوعاً للفن ؟
وأنا أدع للفنيين من الشعراء وغيرهم الجواب على
هذه المسألة .

ممنوع التحليق على أي شيء أو فكرة
مذكورة في الكتاب .

النثر العربي في نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به : أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير ، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب . وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع . فهم ما يزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متناولا ، ثم ما يزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به .

فالنثر مطلق لا قيد فيه ، والشعر مقيد بالوزن والقافية ، والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف . وإذن فالناس يتكلمون نثراً ، وهم يتكلمون قبل أن يشعروا ، وهم لا يجدون مشقة فى الكلام ، وهم يجدون

في نظم الشعر مشقة وعناء ، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان في العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ما حفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لا عسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر في الانشاء ولكن الشعر أدنى إلى الحافظة وأسهل لها قياداً من النثر ، أليست القيود التي تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل في استظهاره لذة وراحة لا يجدهما في استظهار النثر ؟ فإذا كان ما نرويه من نثر العرب قبل الإسلام قليلاً فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل هو لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظتهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضع نثر العرب الجاهليين إلا أقله ، وبقى شعر العرب الجاهليين إلا أقله . كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك ما يزال يقول المحدثون ولكن شيئاً من التفكير والنظر في آداب الأمم المختلفة يضطرنا إلى أن نعدل عن هذا الرأي القديم ، فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها في عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها في ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على
الشعر. ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه
الأمم إلا عن النثر القديم، فأما النثر الذي يظهر بعد أن
تبلغ الأمة من الرقي العقلي والمدنى طوراً ما فإن ذاكرتها
تقوى عليه وتنهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره.
الحق أن الأمم إذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك
سبب إلا أنها لم يكن لها نثر في أطوار حياتها الأدبية الأولى،
وإذا روت كثيراً من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر في
أطوار حياتها الأولى هذه، أى أن الشعر أسبق إلى الوجود
من النثر، وأنه أيسر منه وأدنى منالاً. وأنت إذا نظرت
في تاريخ الأمم القديمة والحديثة، وإذا نظرت في حياة الأمم
التي لم تسكد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق إلى الشعر
ولا تهتدى إلى النثر ولا تظفر به إلا بعد زمن طويل وجد
غير قليل ورقى في الحضارة، وتقدم في الحياة العقلية لا بأس
بهما. تجد ذلك عند اليونان وتجدّه عند الرومان، وتجدّه
عند العرب وتجدّه عند الأمم الأوروبية الحديثة.

وحيثما وجهت في القبائل التي لم تستقر بعد فسترى كلاماً
منظوماً، له أوزانه وقوافيه دون أن نجد لها هذا النثر الذي

يظن رجال الأدب أنه أقرب من الشعر منالاً . ذلك أن النثر

ليس أقرب من الشعر منالاً ، في حقيقة الأمر ، ولعل حظه

من العصر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر

منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق

إلى النمو في حياة الأفراد والجماعات من العقل ، خيال

الصبي والشاب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة

أقوى من عقلها ، فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم

العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر، وليس

عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولاً من النثر .

فالخيال إن تقيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد

بشيء آخر ، هو حرٌّ طلق يمضي حيث يشاء ويصور الأشياء

كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل

فقد يطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولكن ما أثقل

القيود والأغلال تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له

بالتقدم إلا في بطء وأناة ، هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ،

وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو ، فإذا حاول الطيران

أو العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه

الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى في هدوء ،

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هي، هو
 مقيد والخيال مطلق، وهو بطيء والخيال سريع، فليس عجيباً أن
 يتأخر نموه عن نمو الخيال، وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أعمس
 وأقل من إنتاج الخيال، وليس عجيباً آخر الأمر أن يكون النثر
 الذى هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذى هو لغة الخيال
 ولكن مالى ولهذا كله؟ وأين أنا من الموضوع الذى أريد
 أن أكتب فيه، وهو النثر العربى فى هذا العصر الذى نحن فيه؟
 وما هذه المقدمات الطويلة؟ أليس القارىء يحس أنى أطيل
 عليه وأثقل فى غير نفع ولا جدوى؟ بلى، ولو كنت من
 أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات
 فالخيال كما قلنا ^{خفيف} خفيف حر يأتى حيث شاء وكيف شاء ولكنى
 أريد أن أكتب نثراً، أى أريد أن أحمل عقلى على أن يتحدث
 إلى عقل القارىء، وقد قلنا إن العقل رزين بطيء لا يطير
 ولا يعدو، ولكنه يسعى فى أناة فليسع القارىء معى فى أناة
 أيضاً، وليستقل معى من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن
 أنتقل به. ليلاحظ أن هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية
 وخط النثر من القوة والضعف، من الرقى والانحطاط، من البرد
 والحر والفتور. متى بلغ النثر اليونانى أقصى ما استطاع أن يبلغ

من الرقي؟ في عصر سقراط وأفلاطون . ومتى بلغ النثر العربي
أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقي؟ في عصر ابن المقفع
والجاحظ وأشباههما . أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب
رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول
وهو كذلك عند الرومان ، وهو كذلك في أمم أوروبا الحديثة ،
وهو كذلك في مصر . إن الذين يريدون أن يؤرخوا الآداب
العربية في هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين
الآداب والعلم ، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل
استقلالاً تاماً عن الحياة العلمية ، بل هم خليقون أن يعتقدوا
أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية ، وإنما هناك حياة
عقلية تظهر مرة في شكل أدبي هو النثر الفني وتظهر مرة
أخرى في شكل علمي ، هو هذا النثر الذي نبجده في كتب العلم
الخالص ، أقول إن الذين يدرسون تاريخ الآداب في هذا
العصر الحديث خليقون أن يقدرُوا تأثير العلم والفلسفة في
هذا الآداب وفي النثر بنوع خاص ، فليس يمكن أن يكون
من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقي العلمي
الفلسفي ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص ، وفي
الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يكتب في الشرق

العربي في أول القرن الماضي تشعر بالفساد الفني الأدبي وحده، ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيم وبإعدام هذه العقول التي يترجم عنها هذا النثر، وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعك ما ترى من هذه الزينة المفضية والبهرج البديعي والبياني؛ من سجع وتكلف في الاستعارة والمجاز في التشبيه والكناية والتورية وما إليها ، فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى . إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطري فهي تتكلف الزينة ، وأعوزها حر الحلي فهي تخدع الناس بهرجه وزائفه ، ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي إنما هي إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية ، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وإنما أطلقه منها لأنه منحه هذا الروح القوي الذي يمكنه من أن يستقل بنفسه ويستهيء العقول والألباب قليلاً قليلاً، وهذا الروح القيم الذي بث الحياة في النثر العربي وألقى

عنه هذه اللغائف البالية التي كانت تثقله وتعوقه عن الحركة
 إنما هو المعنى، وهذا المعنى إنما جاء من الحياة العقلية التي أنشطها
 العلم والفلسفة في القرن الماضي. وليس أدل على صدق ما نقول
 من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته
 من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وإنما كانا رهيئين
 بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم
 والعقل الغنى. مؤلم جداً هذا الشعور الذي تجده حين تقرأ الجبرقى
 وأمثاله من الذين كانوا يكتبون في أول هذا العصر الحديث.
 ولكن توسط القرن الماضي وقرأ ما كان يكتب في مصر
 والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شيء من الألم كثير، لأنك
 تقرأ كلاماً يدل على شيء، ويريد بنوع خاص أن يدل على شيء،
 ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة
 لأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال
 من جهة أخرى. ثم صِلْ إلى الثلث الأخير من القرن الماضي
 وقرأ ما كان يكتب في مصر والشام أيضاً فسيعظم حظك من
 اللذة وستشعر بشيء من الألم، ولكنه ليس هذا الألم الذي تجده
 حين تشهد البؤس والاعدام وإنما هو نوع آخر من الألم تجده
 حين تشهد التكلف والتضع، وحين نحس أن هذه المعاني،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتهما لأحدثت
فى نفسك من البهجة واللذة مالا تستطيع أن تحدته وهى
مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربى قد كان ثقيلًا بغيضاً
- أول القرن الماضى - لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية
لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولتفكيره ، أو قل لأنه كان فقراً
كله ثم أثرى العقل الشرقى شيئاً فشيئاً فدبت الحياة فى النثر
بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحسن حياته
وقوته يجتهد فى أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال
البؤس ، حتى انتهى إلى حيث هو الآن من حرية وانطلاق .
فالنثر إذن مدين فى هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقبه الفنى
كما كان مديناً فى غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة ،
وما أحدثا من تنشيط العقل ورده إلى اليقظة بعد النوم وإلى
الحركة بعد الجمود . ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا
ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدرُوا ما للذين
نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد ، فلو لا المترجمون فى العصر
العباسى ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ ، ولو لا
المترجمون فى هذا العصر الحديث ما غادت للنثر العربى حياته

القوية النشيطة التي نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .
أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشيء . فان حياة النثر

العربي في هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث (١)

والفلسفة الحديثة ، وإنما جاءت من قبلهما ومن قبل شيء آخر

هو الأدب العربي القديم في عصوره الراقية . فقد كان الكتاب

وأهل العلم في أوائل القرن الماضي يجهلون أو يكادون يجهلون

قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين

يلبسون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلبسون

به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه .

أما الآن فقد تغير هذا كله وعرف الأدب العربي القديم .

وعادت الحياة إلى الشعر العربي والنثر العربي ، فنحن نقرأهما

ونحفظهما وننقدهما وتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير

في وجود ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذي

رد الحياة إلى الأدب العربي القديم ؟ وما الذي ذكر كتاب

الشرق وشعرائه بهذا الأدب وما الذي حملهم على قراءته

وروايته ونقده واحتذائه ؟ إنما هو هذا الروح العلمي الذي

جاءنا من العرب ونقله إلينا المترجمون . هذا الروح العلمي هو

الذي أنشط العقول ، وحملها على أن تفكر في القديم والحديث

كل من الذي يجب على العقل النظر إليه في القديم !!

وعلى أن تغزو نفسها بهما معاً . وإذن فأننا لم أسرف ولم أتجاوز
الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين
أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد أحب
أن أعرف حظ البلاد الشرقية في إيجاد هذه الصلة الخصبة
القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد في ذلك مشقة ولا عسراً ،
فالبلاد التي ردت الى الشرق حياته العقلية والأدبية في هذا
العصر . هي بعينها البلاد التي أحيت الشرق في العصور الأولى
حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة . نعم لم يستمد الشرق
العربي حياته قديماً من شمال أفريقية ولا من جزيرة العرب
بل لم يستمدّها من العراق الا بمقدار ، وإنما استمد حياته
الصالحة الخصبة في نظام واطراد من مصر والشام . من هذين
القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة ، ومن هذين القطرين
انبعثت الحضارة إلى أطراف الشرق ، وفي هذين القطرين
أثمرت الحضارات الأخرى التي نشأت من غيرهما وسيطرت
على الشرق حيناً طويلاً أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان
والعرب ، وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية
وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما
ملجأ أميناً ومأوى حصيناً نعم وفي هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية في هذا العصر الأخير : نشأت في مصر
ونشأت في الشام أوائل القرن الماضي ، واستبق القطران فيها
استباقاً عظيماً حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذي
ظفر به كل منهما في هذه النهضة ، فبينما كان أمراء مصر من
الأسرة العلوية يجددون في إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها
وبين الغرب . وإرسال الوفود العلمية إلى أوروبا واستقدام
العلماء الأوربيين إلى مصر ، وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل
الكتب في ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل
الشام يتصلون بأوروبا اتصالاً قوياً لأسباب مختلفة : منها
السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث في بلاد الشام
حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التي كان يستحدثها الأمراء في
مصر ، وكانت تنتج عن هاتين الحركتين في مصر والشام
نتيجة واحدة : هي نشاط العقل الشرقي واستئنافه الحركة
والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان
في مصر علمياً عملياً أو أقرب إلى العلم والعمل منه إلى أي
شيء آخر ، بينما كان مظهر الحركة في الشام أقرب إلى الأدب
واللغة ، وأدنى اليهما منه إلى أي شيء آخر . فأنت تستطيع أن
تجد في مصر في أثناء القرن الماضي العلماء الذين تفوقوا في

الطب والرياضة والطبيعة ، ولكنك لا تكاد تظفر فيها
بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا في الشام . وأنت
تستطيع أن تجد في الشام أدباء تفوقوا في الأدب واللغة
واستحدثوا فيهما الجديد النافع ، ولكنك لا تجد في الشام
مثل ما تجد في مصر من العلماء . ومهما يكن من شيء فقد
أرادت ظروف الحياة التي أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط
السوري إلى الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي ،
وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية في الشرق
كله ، فانتقل أدباء السوريين وعلماءهم إلى مصر ووجد نشاطهم
فيها ما لم يكن يجده في الشام من القوة والتشجيع فآتى ثمرته
الباقية الخالدة وأصبح النثر العربي الآن أصدق مزاج التأم
فيه الروحان السوري والمصري التاماً لا سبيل إلى تفريقه .
ولست أقول هذا الكلام عبثاً ، ولا أطلقه من غير دليل ،
فليس من شك في أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور في نشر
الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث ، وأنا حين أذكر
الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أو دون الشهرية
إنما أريد الصحافة كلها ، والصحافة سورية مهما يكن من شيء ،
ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش في أن الصحافة المصرية

هذا رأيي لرغم رأيي بن جيب عيسى انه قد ذكرته في الاسماء
والسمات

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة
الأيدي وشدة الأسر في هذه الأيام لم تستطع أن تسبق
الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها .

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد
بلغت من القوة في هذه الأيام حظاً موفوراً ، فهي بعد
لم تستطع أن تتجاوز السياسة ، وهي إن أثرت في الأدب
فمن طريق السياسة ومن السعي إلى السياسة ، فأما الصحافة
الأدبية والعلمية الخالصة التي تتناولها لتقرأ فيها فصلاً من فصول
الأدب ، أو من بحثاً من مباحث العلم ليس غير ، فما زالت إلى
الآن سورية وهي ترحب بضيوفها من المصريين وغير
المصريين ، وتجدهم في تضيفها إياهم حياة وقوة ، ولكنها
على كل حال سورية .

والآن وقد ألمنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل
نستطيع أن نشخصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل إلى المميزات
التي تفرق بين هذا النثر الذي نكتبه الآن والنثر الذي كان
يكتب منذ خمسين سنة ؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان
النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى
قيم يحدث في نفسك ما تطمح إليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التي كان يرسف فيها النثر القديم . فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع والبيان ، ولكنه لم يكن يتكلف هذه الألوان بحكم الفقر والاعدام ، وإنما كان يتكلمها بحكم العادة ولم يكن بدّاً في ذلك الوقت الذي أحسّ العقل الشرقي فيه حرّيته وشخصيته من أن تشب الحرب ضروساً بين المذاهب المختصمين دائماً في النثر : مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى النشاط في الأدب منهم إلى النشاط في غيره ، وأنت تعلم أن الصحفي مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص من هذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً ، واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن يكتبوا فصولاً لا تخلو من آثار القديم ؛ فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب في أوائل القرن الماضي وفي منتصفه أيضاً ، فيها حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة ، وفيها اجتهاد في اختيار الحر من اللفظ واجتناب المبذل ، وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة في مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب ، واشتدت حركة إحياء الأدب العربي في القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربي القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم . ولم يكد ينتهي القرن الماضي حتى كان الشعر قد خلاص من أغلال البديع خصوصاً تاماً ، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد في النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتي ولا يحرصون على بديع ابن حجة وإنما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية في العصر العباسي ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبرأته من العامة والابتذال . وأصبح أنصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان ، فقد استراحوا من البديع والبيان وإنما ينفرون من الاغراق في هذا الأدب العربي القديم ويطمحون إلى تقليد الأدب الغربي الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية . اشتد هذا الجهاد بين أنصار القديم والجديد في العقد الأول من

هذا القرن، وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً
 للجديد، وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر
 والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار
 القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً في
 الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب. ثم كانت
 حركة وطنية في مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها
 اندفاعاً شديداً وكان الشبان قوة هذه الحركة، ومن الذي يستطيع
 أن يأخذ الصحف المندفعة في حركاتها السياسية بملاحظة القديم
 وانتقاء الألفاظ؟ ومن الذي يستطيع أن يأخذ الشباب الشائبان
 يتقيد بالقاموس أو لسان العرب؟ ولا فما تجاوزت هذه الحركة
 السياسية مصر وكانت الثورة في قسطنطينية وأعلن الدستور
 العثماني وردت الحرية إلى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا
 كله أثر قوى في الأدب العربي، وفي النثر منه بنوع خاص،
 وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب
 والشعراء. ذلك لأن الحركات السياسية نقلت الكتابة
 من بيئتها القديمة إلى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه
 الحركات، فقد كانت الكتابة - كما كان العلم - حظاً مقصوراً
 على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظاً شائعاً في الناس جميعاً . ومن ذا الذي يستطيع أن يأخذ
الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقييد بمعاجم اللغة
وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال
والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا إلى حد لم يعرف من قبل
ثم انتهت هذه الحرب ونتج عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية
العامة في الشرق العربي كله ، وأثر هذا في حياة الناس على
اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر في الأدب أيضاً ، وفي
النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو
الحركة الأدبية في الشرق العربي ، وأن هذه الثورة السياسية
شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حيناً وقصرت جهودهم
على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت في النثر
العربي آثاراً لن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً
واستحدثت فيه فنوناً مختلفة وأساليب متباينة من الطعن
والخصومة لم يعرفها النثر العربي من قبل . ثم لم تلبث السياسة
نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة في النثر ظهرت منذ
حين وآتت ثمراً طيباً ، ولكنها لم تصل إلى غايتها . ومن
الحق أن نقول إن مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل
شيء خير وشره وقد كان للخصومة الحزبية في مصر شروطها

وآثامها ، ولكن لها في الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وإنما
نعنى منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين
الأحزاب فاضطرها إلى أن تتنافس في اكتساب الجمهور
وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان
الأدب من أهم الأسباب التي اتخذتها الصحف وسيلة إلى
التنافس . أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلد في ذلك
صحف أوروبا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة
ما تكتب في السياسة ، وما هي إلا أن أصبحت الكتابة في
العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة
صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه
لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية
فصولاً في العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز
مصر وتنبت في الأقطار العربية كلها ، فما أسرع ما تتأثر هذه
الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذي
يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حراً بريئاً منتجاً بعد أن
فرقت بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التي استحدثتها

السياسة في الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذي نحن بازائه وهو النثر الأدبي الفصيح . هذا النثر الأدبي الفصيح ان امتاز الآن بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنتهي إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الأول أن يقدم إليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقي الأسلوب بريد من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثاني أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميوها لجديده ، قيمياً في معناه كما هو قيم لفظه ، حر في معناه كما هو حر في لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص في حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذي قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء أقله ضئيلة في حقيقة الأمر ، لا يكاد

يعبأ بها أحد ، أولئك لا يزالون يستمسكون بالصناعة اللفظية ،
ويسرفون فيها إسرافاً شديداً ، فينصرف عنهم الناس لأنهم
لا يفهمونهم ، ولا يجدون عندهم ما يريدون . وهؤلاء يزدرون
الألفاظ ويفنون شخصيتهم الشرقية العربية في كتاب الغرب
فينصرف عنهم الناس ، لأنهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية
الشرقية العربية ، التي يكلفون بها ويناضلون في سبيل تحقيقها
وإكراه أوربا على أن تعترف لها بالوجود .

أظنك تعفيني من أن أتجاوز هذا القدر العام إلى التحدث
إليك عن شخصيات الكتاب النافرين في مصر وغير مصر
وآثار هذه الشخصيات في أساليبهم النثرية فقد أطلت
وأسرفت في الإطالة ولو ذهبت أحدثك عن شخصيات
الكتاب وأساليبهم لما فرغت الآن ، وما أشك في أن
«المقتطف» حريص على أن أفرغ .

البؤساء

كنت أريد أن أحدثك اليوم عن شاعر عربي قديم
ولكنني وجدت أمامي شاعراً عربياً حديثاً، فآثرت أن يكون
هذا الشاعر موضوع حديث هذا الأسبوع .

الحق أني وجدت أمامي شاعرين : أحدهما فرنسي هو
فيكتور هوجو . والثاني مصري هو حافظ إبراهيم . ولكنني
لا أريد أن أتحدث عن فيكتور هوجو اليوم . لأن كتاب
البؤساء ليس من كتبه القيمة ، التي تستحق الإعجاب أو
تستعد لطول البقاء .

ليس البؤساء من هذه الآثار التي صدرت عن فيكتور
هوجو فشلت شخصيته القوية ونبوغه العظيم . وإن كان من
كتابنا المصريين الذين يجهلون الفرنسية ولم يقرأوا فيكتور
هوجو إلا مترجماً إلى العربية أو الانجليزية من كتب منذ
أسابيع يزعم أن فيكتور هوجو ليس ذا قيمة ولا خطر .
ليس البؤساء من هذه الكتب التي نقرأها فنعجب بكتابها .

ونشعر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفي قلوبنا تأثيراً عظيماً ،
وإنما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه
اطالة واملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثروة لا تفيد . ولست
أدرى لم اختاره حافظ وكلّف نفسه ألوان الجهد والعناء
في ترجمته ! فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيماً وعناء
شديداً في هذه الترجمة ، ولست أدرى لم اختاره ؟ بل ربما
كنت أدرى ، فقد أذكر أن قد كان البدع في أيام صباى
تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتتان في شكوى
الناس والزمان . كان ذلك بدعا في العقد الأول من هذا
القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه .

في هذا العصر اختار حافظ كتاب البؤساء ، فترجم منه
جزءاً . ولكن الأيام دارت دورتها ولم يتح لهذا المزاج
السيئ المظلم أن يتأصل في النفوس أو يسيطر عليها . فلو أن
حافظاً أهمل البؤساء ولم يمض في ترجمته لما سأله سائل ،
ولا لابه أحد . ولكنه بدأ عملاً فأراد أن يتمه وهذا حق له
وواجب عليه ، وليس يخلو من نفع جم وخير كثير .

لأتحدث اليوم اذن عن فيكتور هوجو ، ولا عن كتاب
البؤساء . وإنما أتحدث عن حافظ وعن ترجمته لكتاب

البؤساء . ولست أخفى عليك أن هذا الحديث ليس بالسهل ولا باليسير ، فان لحافظ في نفسى مكانته العالية في نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين . وله في نفسى مكانة خاصة هي مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن إلى خلقه وأرتاح إلى حديثه العذب .

لحافظ في نفسى هاتان المكانتان ، فأنا متهم حين أثنى عليه ومكره لنفسى حين أنقده . ومع ذلك فمن حق كتابه على الثناء والاعجاب . فلست تقرأ في كتاب من هذه الكتب التى تصدر في هذه الأيام أسلوباً أمتن ولا تركيباً أرحن ولا لفظاً أحسن اختياراً وأشد ملائمة لمعناه واستقراراً في نصابه مما تقرأ في هذا الجزء من كتاب البؤساء .

ليس في ذلك شيء من الاسراف أو الغلو بل هو دون ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن تقول في كتاب ظهر في هذه السنة ولهذا الجيل ، فاذا قرأته استيقنت أنه لم يكتب في هذه السنة ولا لهذا الجيل !

ماذا تقول في كتاب لا تكاد تمضى في قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب في غير هذا العصر . كتب أيام كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بعد أسنمال البداوة ، ولم ترتد حلل

الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون !
أيام كانت لغة الأشداق الواسعة العريضة ، والشفاه الضخمة
الغليظة لا الأفواه الضيقة الظريفة ، ولا الشفاه الناعمة الرقيقة ،
ثم هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعاني
حضرية . عواطف ومعاني نشأت في أوروبا وفي نفس
فيكتور هوغو ! يصف بلغة رؤبة والعجاج وذى الرمة
خواطر كتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر !

ليس في ذلك إسراف ولا غلو ، فقد كنت أظني أعرف
العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتابا ولا سيما من هذه الكتب
المعاصرة ، دون أن أحتاج إلى بحث كثير في القاموس . فلما قرىء
على البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه ! وأقسم لو لا هذا
الشرح الذي تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت في قراءة
الكتاب إلا مع شئ غير قليل من المشتة والعناء . ولكني
لا أدري أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة في وقت
واحد . مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن
الامام بها ، والانتفاع واستظهر . وعلى أنه قد كد وعنى نفسه
في تخير هذه الألفاظ الشاردة وتقييدها وحسن الملائمة بينها
وبين هذه المعاني والعواطف الحضرية المألوفة . وعلى أنه

حريص كل الحرص على أن يحتفظ للغتنا العربية بروائها
القديم وجمالها البدوي التليد . وعلى أن يعصمها من السقوط
والاسفاف .

ونقيصة لأنها تكلف ولأنها عقبة تحول بين القارىء
وبين الفهم ، ولأنها لا تلائم روح العصر ، ولأنها لا تعين على
ما قصد اليه من نشر آراء فيكتور هوغو وإذاعة عواطفه بين
شعبنا المصرى الذى لا يعرف لغة روبة والعجاج منه إلا نفر
يحصون . ولقد كنت حافظاً فى ذلك فقال إنى عملت للخاصة .
وكننت أظن أنى من هؤلاء الخاصة ، فاذا بينى وبينهم أمد بعيد !
وأحسب أن خاصة حافظ لا يوجدون إلا فى خياله !

أحمد لحافظ هذه اللغة الغريبة الجزلة ، لأنها تدل على عناء
وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد
غير نافع وهذا العناء غير مفيد . وما رأيك فى أنى أقرأ
الأصل الفرنسى فأفهمه بلا عناء وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها

إلا كارهاً ! ولست أتقن الفرنسية اتقاناً خاصاً ولا أجهل
العربية جهلاً خاصاً ، فكثير من الناس يفهمون البؤساء
بالفرنسية فهماً يسيراً ويفهمون البؤساء بالعربية فهماً عسيراً ،
ولقد قال لى أحد الكتاب المجيدين : أليس غريباً أن يكون

ابن المقفع أدنى الى افهامنا من حافظ !
أيسمح لى حافظ بعد هذا أن آخذه بعينين عظيمين :
أسف جداً لأننى مضطر الى آخذه بهما ؟ فله علينا حق الانصاف
ولكن للعلم والنقد حقهما من هذا الانصاف أيضاً .

الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم .
ولست أريد أن أطيل فى ذلك وإنما ألفتة إلى أنه قد أهمل
الصفحة الأولى من الكتاب إهمالاً تاماً فلم يشر إليها بحرف
وهذا نصها :

« لعل القارىء قد أحس أن « مسيو مدلين » لم يكن الا « جان
فلجان » ، لقد نظرنا فى أعماق هذا الضمير ، وقد آن أن نعيد
النظر فيه ، ولن نفعل ذلك دون أن ينالنا الانفعال ، ويملكنا
الاضطراب ، فليس شيء أبعد للقلق فى النفوس من هذا
النوع من المشاهدة . ولن تستطيع عين العقل أن تجد فى أى
مكان ضوءاً أخطف للبصر ، أو ظلمة أشد بما تجد فى الانسان !
لن تستطيع هذه العين أن تثبت على شيء أدعى الى الخوف
وأشد تعقيداً ، وأكثر غموضاً وأبعد مدى فى الوجود منظر
أعظم من البحر . منظر السماء وفيه منظر أعظم من السماء ،
هو دخيلة النفس !

وليست محاولة انشاء هذه القصيدة ؛ قصيدة الضمير
الانسانى ولو بالقياس إلى رجل واحد ، ولو بالقياس إلى أشد
الناس ضعة . إلا محاولة صوغ القصائد القصيدة كلها في
قصيدة واحدة أعلى مكانة في الشعر وأدنى إلى الكمال . انما
الضمير هو النار المتأججة تسبك فيها الأحلام وهو الكهف
تحتبىء فيه الخواطر الدنيئة المخجلة ، وهو العاصفة الجهنمية
تأوى إليها كل شياطين المغالطة ، وهو ميدان الجهاد بين
الشهوات .

تخطّ في بعض الأحيان هذا الوجه الممتع ، وجه
الرجل المفكر ، وانظر وراه . انظر في هذه النفس ، انظر
في هذه الظلمة . ان تحت هذا الصمت الظاهر حرباً ضروساً
قد اشتبكت فيها المردة كما في « هوميروس » ومعارك قد
التحمت فيها الثنائين والحيات ، وسحاباً من الأشباح كما في
« ميلتون » ودخانا يصعد ملتويّاً كما في « دنتى » شيء مظلم
هذا الضمير الذى لاحد له ، والذى يحمله كل انسان في نفسه
ويقيس به يائساً إرادة عقله ، وما في حياته من عمل !
لقد صادف « التجيرى » في يوم من الأيام باباً مخيفاً تردد
قبل أن يلجّه ، فانظر أمامك فهذا باب مخيف أيضاً ، نتردد

أمامه . ومع ذلك فلندخل ! » .

بحثت عن هذا الكلام في الترجمة فلم أجده ، وما أحسب أنه سقط في المطبعة سهواً أو خطأ !

العيب الثاني : أن ترجمته — على ضخامة ألفاظها ونخامة أساليبها وعلى مالها من روعة وجمال — ليست دقيقة ولا حسنة الأداء ، وقد يكون لحافظ في ذلك رأيه . ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل . وليست ترجمة حافظ كذلك . ولست أريد أن أطيل ، وإنما أضرب مثلاً واحداً . قال حافظ :

« قدمنا بين يدي القارىء ما كان من أمر «جان فليجان» منذ ابتد ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال هذا الرجل إلى رجل آخر . وكيف فعلت في نفسه كلمات العابد (كذا ؟) أفاعيلها فأختطفته إلى المعبود وأخرجته من مسلاخ الشرّة (كذا ؟) والضعيفة وأسكنته في إهاب من الفضيلة . »

وقال فيكتور هوغو :

« ليس لدينا إلا شيء قليل نضيفه إلى ما عرف القارىء من أمر «جان فليجان» منذ كان بينه وبين «بني جارفيه»

ما كان . فقد رأيت أنه أصبح رجلاً آخر منذ ذلك الوقت
فأنفذ ما أراد الأسقف أن يصنع به ، صنع بنفسه شيئاً
أكثر من التحويل ، خلقها خلقاً جديداً .

ولو أننا ذهبنا في المقابلة بين الأصل والترجمة لأظهرنا
خلافاً شديداً جداً بين الشاعرين : الفرنسي والعربي .
ولكننا قد أطلنا قلناختصر .

نأخذ حافظاً بعيوب ثلاثة : الاسراف في اللفظ الغريب ،
والاعراض التام عن بعض النصوص . والتشويه الذي
يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر . وهذه العيوب الثلاثة
خطرة جداً ، ولكن حافظاً يستطيع أن يحميها فليس يمكن
أن نقراً لا أقول ترجمته ، بل أقول كتابه دون أن
نستفيد .

الشعر
الشوقية الجديدة

لغيري أن يمدح شوقي بلا حساب. أما أنا فلا أريد أن
أمدح ولا أريد أن أذم. وإنما أريد أن أنقد وأن أوثر القصد
في هذا النقد، وأظن أن شوقي يؤثر النقد المنصف على الحمد
المسرف. وأظن أني أجل شوقي وأكبره والنقد أكثر من
اجلالى إياه بالتقريظ والثناء، فقد شبع شوقي ثناءً وتقريضاً،
وأحسبه لم يشبع نقداً بعد. وليس شوقي فيما أعلم منه شراً
إلى حسن الحديث وطيب القالة. وهو لم ينشئ شعره لذلك
وإنما هو شاعر يحب الشعر للشعر وينشئ الشعر لأنه يجد في
نفسه عواطف يحب أن يضعها، وإحساساً يحب أن يذيعه.
هو شاعر لأنه يشعر وليس هو بالشاعر لأنه يريد أن يتكلم
لا أكثر ولا أقل.

أنا اذن واثق بأنى لن أغضب شوقي اذا نقدته ، وربما
أغضبتة اذا غلوت فى الثناء عليه ، على أنى لست فى حاجة الى
هذه المقدمة الطويلة . فقد لا يسهل على ولا يسر لى نقد

هذه القصيدة الجميلة التي نشرتها علينا «الاهرام» صباح اليوم .
 نعم قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ، وقد يضطر الناقد الى
 أن يتلصق فيها العيب ، ويبحث فيها عن مواضع الضعف ، وقد
 لا يجد شيئاً بعد طول التلصق والبحث فيقف من شوق
 لا موقف الناقد بل موقف المداعب . وهل تظن أن مداعبة
 شوقي ضئيلة الخطر أو قليلة القيمة ؟ لا أقول كما قالت
 «الاهرام» إن قصيدة شوقي هذه هي درة الشعر والنظم :
 وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقي فيها الكثير الجيد
 وليست تخلو من الرديء ولشوقي بحمد الله قصائد أمثلة لفظاً
 وأرصن أسلوباً وأحسن في النفس موقعاً ، وأرفع معنى من
 هذه القصيدة .

لا أستطيع أن أتخذ هذه القصيدة مقياساً لشاعرية شوقي
 وحسن غوصه وفوزه بالمعنى الجيد وحسن أدائه في اللفظ
 الرشيق . لا أستطيع ذلك وقد قرأت في الشباب شعر شوقي
 في الشباب فوجدت في هذه القراءة لذة لم أجدها في قراءة
 شاعر عصرى آخر . ليست هذه القصيدة آية من آيات
 شوقي ، وإنما هي قصيدة من قصائده الجيدة ، ولعلك اذا أردت
 أن تتلصق بمصدر ما في هذه القصيدة من جودة لم تتجاوز شيئاً

واحداً ، وهو أن شوقي لم يتكلف في هذه القصيدة لفظاً ولا معنى ،
وانما شعر وأحس وجرى قلبه بما أحس وما شعر . وليس هذا
بالشيء القليل ولعل هذا هو كل شيء .

اقرأ هذه القصيدة من أولها الى آخرها تشعر بما يشعر
به شوقي وتحس ما يحسه شوقي . وبم شعر شوقي ؟ وماذا أحس
شوقي حين تناول القلم فكتب هذه القصيدة ؟ شعر بشيئين
يشعر بهما كل مصرى ، ولكن شعوراً غامضاً لا يتبينه في
نفسه ، ولا يستطيع أن يبينه للناس . أحدهما أن لتاريخ مصر
القديم مجد وعظمة . والثاني أن لتاريخ مصر الحديث فقير الى
هذا المجد والى هذه العظمة . بهذا يشعر كل مصرى وبهذا
شعر شوقي . ولكن كل مصرى لا يستطيع أن يبين هذا كما
يبينه شوقي ، ولا أن يذهب فيه مذاهب القول التي ذهبها شوقي .
فانظر اليه كيف ابتداء قصيدته بمناجاة الشمس ، فأخذ
يسألها ويستوحيها ويحسن سؤاها واستيحاءها . وأخذت هذه
الشمس تجيبه فتحسن الجواب وتلهمه فتجيد الالهام :

قفي يا أخت (يوشع) خبرينا

احاديث القرون الغابرينا

وقد وقفت أخت (يوشع) تخبره أحاديث القرون

الأولين في أعذب لفظ وأسلسه . وأجمل أسلوب وأرقه
دون أن تتعسف به أو تثقل عليه ، دون أن تضل به في هذه
القرون القديمة الكثيرة العميقة ، التي لا يحصى لها عد ولا
يسبر لها غور . وقفت أخت يوشع فحدثته أو قل إنها ألهمته
فرد عليها حديثها . أو قل إنها انابته عنها فتحدث الى الناس
بلسانها ، فأحسن الحديث وأجاد الترجمة .

زعموا أن المأمون كان ينشد قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو في ثياب صديق

وكان يقول لو أن الدنيا تكلمت فوصفت نفسها لما
بلغت ما بلغ هذا الشاعر ، أفتظن أن الشمس لو تكلمت
فوصفت ما بينها وبين الحياة من صلة ، وألقت على الناس موعظتها
الحسنة في غير اسراف ولا غلو ، في غير تكلف ولا تعسف
كانت تقول أحسن من هذا ؟

مشيت على الشباب شواظ نار

ودرت على المشيب رحي طحونا

تعينين الموالد والمنايا

وتبئين الحياة وتهدميننا

فيالك هرة أكلت بنيتها

وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقاً؟ أليس هذا بريئاً من كل سقم لفظي
أو معنوي؟ أليس هذا واضحاً يفهمه كل عقل؟ أليس هذا
عذاباً يسيغه كل ذوق؟ أليس هذا يسيراً يسيراً؟ أليس
هذا عسيراً؟

ولكن الشاعر أراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة ،
والعبرة العامة الى موضوعه الذي عمد اليه ، ويخيل الى أنه لم
يوفق الى حسن الانتقال

أم المالكين بنى (أمون) ^{أشبهوا}
ليهنك أنهم نزعوا (أمونا)

لست أدري لم أجد شيئاً من الصعوبة في إساعة هذا
البيت؟ ويخيل إلى أنه لو أسيغ لكان عسير الهضم . ولعل
مصدر هذا اسم (أمون) الأعجمي الذي وقع موقعاً فيه
شيء من الحرج في هذه الصفحة العربية النقية ولعل مصدر
هذا بنوع خاص هذا الفعل الغريب الذي تكلفه الشاعر
تكلفاً ، أو اضطر اليه اضطراراً وهو (نزعوا) يستعمله
الشاعر بمعنى (أشبهوا) ويمر به القارئ فلا يفهمه ويضطر

الى أن يعطف على هذا الشرح الذى اضطر الشاعر نفسه الى أن يضعه . ولعله كان يستطيع أن يجد فى سعة اللغة وثروتها مخلصاً من هذا الحرج . وفرجاً من هذا الضيق فلا يقف ليشرح ولا يضطر القارىء الى أن يقف فيقرأ الشرح . وهبه انشد قصيدته إنشاداً ولم ينشرها فى « الاهرام » ، أترأه كان ينشد هذا البيت ثم يقطع الانشاد ويعمد الى هذا اللفظ الغريب فيفسره لسامعيه؟ وما لنا نحزن ونحن نستطيع أن نسهل وما لنا نعسر ونحن قادرون على التيسير .

ولعل الشاعر يعذرنى أيضاً إذا لم يعجبني هذا البيت .
ولدت له (المآمين) الدواهى

ولم تلدى له قط (الأمين)

فلفظ (المآمين) فيه نبو . ولفظ (الدواهى) يبعث
الاشمئزاز فى النفس ، ولفظ (قط) يخلو من كل جمال
شعرى . والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التى أضافها
الشاعر . والبيت كله مخالف للحق فليس من الحق فى شيء أن
ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون ، وليس من الحق أنه لم يكن
فيهم من أشبه الأمين . على أنى أبحث عن هذا الشبه فلا
أجده وأكاد أخشى أن يكون الشاعر قد ظلم الأمين كما ظلمه

نحو

قط

القصاص والرواة .

ثم مضى الشاعر في لفظ سهل ، ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل ، الى ان قال فأجاد اللفظ والمعنى :

تعالى الله كان السحر فيهم

أليسو للحجارة منطقينا ؟

واستأنف مضيه ليس بالجيد ولا بالردىء الى أن انتهى الى الخلود ، فأحسن وصفه وأجاد التعبير عنه ولا سيما حيث يقول .

وأخذك في فم الدنيا ثناء

وتركك في مسامعها طيننا

وان كنت أجد لفظ (الطين) قلقاً في موضعه ضعيفاً كل الضعف غير ملائم لصدر البيت ، انظر الى هذا الصدر تجده نغماً ضخماً واسعاً رائعاً (وأخذك في فم الدنيا ثناء) ثم انظر الى عجز هذا البيت تجده خاملاً ضئيلاً نحيفاً ، وهل تستطيع ان تضع (الطين) بازاء هذا الثناء الذى ينطق به فم الدنيا ؟ وأين يقع الطين هذا الصوت النحيل من هذا الثناء ثناء الدنيا الذى لا حد له ؟

فناجهم بعرش كان صنواً
لعرشك في شبيبته سنينا

فهو لا يخلو من مسحة شعرية .

ولكنني اعتذرت الى الشاعر اذا استثقلت هذا البيت الذي

نظمت فيه أسماء الفراعنة نظم الخرز

وتاج من فرائده (ابن ستي) و (مينا)

ومن خرزاته (خوفو) (ومينا)

وليس اجمل من اعتذاره عن قدماء المصريين ودفعه

عنهم تهمة الظلم ومن استشهاده بظلم (البستيل) وذكره

بنوع خاص ظلم القسس في بناء البيع التي هي مأوى العدل

والرحمة ، ففي ذلك على جماله الشعرى بر يملأ النفس حنانا .

وان كنت أكره وصف عيسى بشافي العمى . وأظن ان قد

كان للشاعر منصرف عن هذا اللفظ الثقيل المبطل .

فأما قوله (اخا اللوردات) فليس من شوقي في شيء .

وليس من شوقي في شيء وضعه هذا الاسم الأعجمي

(كرنارفون) موضع القافية وجميل وصفه للورد وثنائه

عليه وعظته إياه . ولكن أجمل من هذا كله اعتذاره الى

اللورد من غضب الغاضبين واشفاق المشفقين . في هذا

الاعتذار تلتطف باللورد ، وحنان على مصري يحسن شوقي
وحده تأديتهما :

رأيت تنكرا وسمعت عتبا فعذراً للغضاب المحنقينا
ابوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة للناهبينا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنوننا
هذه الأبيات تعدل آلاف المرات ما كتب الكتاب
الى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار .
ثم عطف الشاعر على الانجليز فرماهم بسهم أصاب منهم
المقتل ، وأحسن الدفاع عن المصريين ، وذلك قوله فى لطف
وخفة روح :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفيننا
وان كانت كلبة (مكفينين) لاتعجبني . وقد أحسن الشاعر
مناجاة خليليه ومناجاة فرعون ووعظ فأبلغ العظة . ولكن
انتقاله من وادى الملوك الى لوزان لا يخلو من غرابة ، وربما
كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شيء من الجمال كثير . وان
كنت أشك فى أن وفود لوزان شغلت بفرعون كما يخیل
الى الشاعر . ولكن الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة

أن تتعظ ؛ وخليقة أن تعمل .

اتعلم انهم صافوا وتاهوا وصدوا الباب عنا مو صدينا
ولو كنا نجر هنا سيفا وجدنا عندهم عطفنا ولينا
سيقضى (كرزن) بالامر عنا وحاجات (الكنانة) ما قضينا
فهل ترى أبلغ من هذا البيت في وصف الألم واللوعة
لقضاء سينالنا دون أن يكون لنا في أمره شيء ؟

ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه
القطعة الصافية المتألثة من قصيدة شوقي . هذه القطعة التي
يتحدث فيها الشاعر الى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة
العالية والموعظة الحسنة ويضع أمامه هذه الألغاز التي عجز
العقل والوجدان عن حلها : ألغاز الحياة والموت . ألغاز البعث
والنشور . ألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس .

ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال ، يثب ويخيل اليك أنه
يخطو . يثب من عصر الفراعنة الى العصر الذي نعيش فيه .
فتراه شاعراً مصرياً يعيش في هذه السنة يحس مانحس ،
ويشفق بما نشفق منه . يحب الدستور ويكلف به ، ويتمنى على
صاحب الجلالة في أذل لفظ وأعذبه وفي أمتن أسلوب
وأصفاه في أشد العبارات تمثيلاً لأصدق العواطف . يتمنى

على صاحب الجلالة اصدار الدستور :

زمان الفرد (يا فرعون) ولى	ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم الرعية نازلينا
(فؤاد) أجل بالدستور ملكا	وأشرف منك بالاسلام ديننا
بنى (الدار) التي لا عز إلا	على جنباتها للمال كينا
ولا استقلال إلا في ذراها	لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب ما لم يدخلوها	على جد الحوادث لاعبيننا
إذا سارت به أيد شمالا	أتت أيد فسرن به يميننا
فعجل يا (ابن اسماعيل) عجل	وهات النور واهد الحائرنا
هو المصباح فأت به وأخرج	من الكهف السواد الغافلينا

ذلك ما أحسه شوقي أمام تاريخ مصر القديم، وهذا ما قاله
عن الدستور أما ما قاله حافظ فقد نعرض له في مقال آخر.

النظم

قصيدة حافظ الأخيرة

كل شعر نظم ، وليس كل نظم شعراً . وقد يشعر الناظم
وينظم الشاعر . بل الشاعر ناظم دائماً . وليس الناظم شاعراً
في كل وقت .

ولست أشك ولا يشك أحد في أن حافظاً قد شعر كثيراً
فأجاد الشعر وأحسنه . ولست أشك ولعل حافظاً لا يشك
أيضاً في أنه كان ناظماً في الأسبوع الماضي حين أنشد بين يدي
صاحب الجلالة هذه القصيدة التي لم أكن أريد أن أعرض
لها لو لا أن شوقي تكلم وتناول في قصيدته التي نقدتها أمس
موضوعاً تناوله حافظ ، وهو الدستور :

نعم لم أكن أريد أن أعرض لقصيدة حافظ لأنها لم
تبعث في نفسي ميلاً إلى أن أصفها بخير . ولعلها بعثت في
نفسي ميلاً إلى أن أنقدها وإلى أن أكون شديداً قاسياً في
هذا النقد .

وقد استطعت أن أؤثر اللين على الشدة وأعدل عن

القسوة إلى الرفق لأن بيني وبين حافظ صلوات مودة دعتنى
أو اكرهتنى على أن اميل مع الهوى فأكتب حقاً كان يجب
أن لا يكتب .

وأنا أعتذر من هذا الصمت إلى حافظ أولاً ، وإلى القراء
ثانياً ، وإلى الأدب بعد حافظ والقراء .

أعتذر إلى حافظ من هذا الصمت فأنا أعلم أن النقد صنيعة
يسديها الناقد إلى الكتاب والشعراء . لأن هؤلاء الكتاب
والشعراء يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون . يعرفون
رأى الناس فيما يكتبون ويقولون ، وليست هذه المعرفة قليلة
الفائدة . يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاختصاصيين .
فيقفون على مواضع القوة والضعف في فصولهم وقصائدهم
فينفعهم هذا ويزيدهم قوة ، إلى قوة ، ويعصمهم من السقوط
والاسفاف . ثم في النقد اقرار للحق في نصابه ودفاع عن
الفن وتبصرة لما في الآثار الفنية من جمال أو عيب .

ولست أريد أن أدافع عن النقد ولا أن أثبت أنه حق
وأنه نافع ، فالناس لا ينكرون ذلك ولا يشكون فيه .

ولست أريد أن ازعم أن حافظاً ينكر على الناس أن
ينقدوه ، فليس في ذلك شك وكثيراً مادعا حافظ أصحابه

وخصومه الى نقده ودلالته على مواضع ضعف ومواطن
نقص في قصائده قبل أن تنشر ، وبعد أن تنشر على الجمهور .
إذا فقد كان من الحق على حافظ أن أنقده ولكن سكت
فقصرت في ذات حافظ وأنا مصلح اليوم هذا التقصير .

وقد كان من الحق على للقراء أن أنقد حافظاً ، حتى
لا يخلط كثير منهم بين جيد هذا الشاعر وهو كثير . وبين
رديته وهو قليل . ولكني سكت وأنا مصلح اليوم
هذا السكوت .

وقد كان من الحق على للأدب أن أنقد حافظاً حتى
لا يضاف الى الشعر ما ليس منه ، ولا يحسب على الفن أثر
ليس من آثاره في شيء . وللأدب على أهله حق المراقبة
والنصح وليس يعذر المقصر في هذا الحق لأن الأدب يحيا
من انتاج الشعراء والكتاب كما يحيا من اصلاح النقاد لآثار
الكتاب والشعراء . فكما أن سكوت الكتاب والشعراء عن
الكتابة والشعر إماتة للأدب أيضاً . وقد أعرضت عن نقد
هذه القصيدة ، وأنا مصلح الآن هذا الاعراض .

ولو أنك أردت أن تتبين دخيلة نفسي لقلت لك بعد أن
ترددت اسبوعاً إن هذه القصيدة لا ينبغي أن تحسب على

حافظ ولا أن تضاف إليه . لأن حافظاً قد قال من الشعر
ونظم من القصائد ممالك القلوب وخب العقول واستأثر
بالآل باب ما ليس إلى نسيانه من سبيل . ويخيل إلى أن إضافة
هذه القصيدة إلى هذا الشاعر المتقن إساءة إلى إتقانه ، وأن
وضع هذه القصيدة بين قصائده الجياد ازراء لهذه القصائد .
وأحسب أن حافظاً يحسن الإحسان كله إذا لم يضع هذه
القصيدة فيما سينشر من أجزاء ديوانه ، فليس لها موضع في
هذا الديوان . ✓

بحثت عن الشعر في هذه القصيدة فلم أجد شيئاً ، وأنا
أزعم أن ليس من النقاد من يستطيع أن يجد ما عجزت أنا
عن الوصول إليه ، بل أزعم أكثر من هذا ، بل أزعم أن
حافظاً عاجز نفسه عن أن يجد شيئاً من الشعر في هذه
القصيدة ، وما أشك في أنه فيما بينه وبين ضميره مقتنع بهذا
الرأى مطمئن إليه .

لقد قرأت القصيدة وقرأتها . ورددت أبياتها ، رددتها
وسألت فيها كل بيت ، بل كل شطر ، بل كل كلمة عن شيء
من جمال الشعر أو قليل من روعة الفن فلم أوفق إلى شيء .
ولست آسف لأن حافظاً لم يجد في هذه القصيدة ، فقد

يرتفع الشاعر وقد يهوى وقد يعلو الفنى وقد يستقط . ولئن لم يوفق حافظ فى هذه القصيدة إلى الإحسان فقد وفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة ، وقد يوفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة . وإنما آسف لأن حافظاً سكت عصر أطويلاً أطول مما ينبغى أن يسكت الشاعر ، ولما قال لم يحسن القول . وما مصدر هذا ؟ وما أصله ؟ وعلى من تقع التبعة ؟ أحق أن العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ولا فن ؟ وإن انصرف الناس عن الشعر والفن إلى هذه الحياة ، وإلى هذه الحياة السريعة العملية التى تنهم القوى وتسم النفوس قد ثبت من هم الشعراء والكتاب وصرفهم عن الشعر إلى النظم ، وعن النثر الرائع الجميل إلى هذه الكتابة المألوفة التى تقرأها فى كل يوم . قد يكون هذا حقاً ، وقد لا يكون . ولكن هناك حقاً لا شك فيه وهو أن الشعر الجيد فى هذا العصر قليل لا يكاد يوجد ولا يعثر به . وهذه القلة نفسها هى التى بعثتنا إلى أن نعجب أمس بقصيدة شوقي ، مع أنها كما قلنا لا تفوق غيرها من قصائده .

الشعراء إذاً مكرهون على أن يسكتوا لأن فى حياتنا الاجتماعية شيئاً يضطرهم إلى السكوت ، وقد يكره الشعراء

على أن يتكلموا فيتكلمون . لكن أى قيمة لشعر مصدره
الأكراه !

فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما فى نفس
الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً
بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلعت نفس الشاعر من
عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر
بما يمثلها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه .
ولست أدري أخلت نفس حافظ من العاطفة القوية أم
عجزت هذه العاطفة عن أن تجرى لسان حافظ بالشعر الجيد
ولكنى أعلم أن ليس فى هذه القصيدة من هذا الشعر شيء .
أول ما يؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلو أبياتها جميعاً
من كل معنى رائع أو تصور بديع . فانك تنتقل من البيت
إلى البيت فلا تجد إلا ألفاظاً مرصوفة وكلمات منظومة يتلو
بعضها بعضاً ، وتدلل على معانيها اللغوية لا أكثر ولا أقل فإذا
عمد الشاعر إلى التشبيه أو المبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل
اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المازق لم يجد إلا ألفاظاً
مألوفة ومعانى كثيراً ما ردها الشعراء ، وطرقاً من التعبير
قد ستمها الناس .

فانظر اليه حين أراد أن يقول إن صاحب الجلالة قد
رفع شأن الأزهر الشريف ، حين زاره كيف لم يستطع أن يقول
إلا شيئاً عادياً مبتذلاً يردده الناس جميعاً ، ويسمعه الناس
جميعاً ، فلا يجدون فيه غرابة ولا لذة ، فقال :

قضيت به الصلاة فكاد يزهي

بزائره على ركن الحطيم

فهل تجد في هذا البيت معنى طريفاً أو وصفاً رائعاً ؟ وهل
تجد في هذه المبالغة شيئاً من الجمال ؟ وانظر الى مبالغة أخرى
كيف أساء الشاعر أداءها ، فقال يريد أن يصف قوة النهضة
المصرية ، وأن يستنبط هذه القوة من شدة الخمول القديم :

أفقنا بعد نوم فوق نوم

على نوم كأصحاب الرقيم

فهل تجد جمالا أو شعراً في كثرة هذا النوم ؟ اليس
يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً وهو قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى

كذاك النوى قطاعة لوصالى

سمع الأصمى هذا البيت فقال ، لو سلب الله على كل
هذا النوى شاة فأكلته !

فماذا عسى أن نقول في نوم حافظ ! وهل تجد لأصحاب
الرقم هنا موضعاً يلائم قصيدة حافظ . أليس الناس جميعاً
يذكرون الكهف وأصحاب الكهف ونوم أصحاب الكهف ؟
وانظر إلى مبالغة الثالثة أساء فيها حافظ الاساءة كلها حين أراد
أن يذكر اغتباط مصر إذ صدر الدستور :
فيا مصر اسجدي لله شكراً

وتيهي واقعدى طرباً وقومى
(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها
وقال الإنسان ما لها) أجاب حافظ : صدر الدستور ! وإلا
فهل ترى مصر تتيه وتقعّد وتقوم طرباً دون أن يكون
هناك زلزال ؟ . ثم قوله (اسجدي لله شكراً) وماذا ترك
للعمامة ؟ ومثل هذه المبالغات التي تخلو من كل روعة . ومثل
هذه الألفاظ التي ابتذلت على السنة العامة كثير في
القصيدة ، وفي الحق أن ابتذال الألفاظ من أشد عيوب هذه
المنظومة فانظر إلى قوله :

فقد تم البناء وعن قريب

تزف لك البشائر من (نسيم)
أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذا

الكلام من آثار حافظ الذى استعمل أشد ألفاظ اللغة غرابة
وأكثرها وحشية فى كتاب البؤساء . الذى استعمل (مِسالخ)
الشَّرَّة) وما يشبهه (مِسالخ الشرة) من غريب الألفاظ
وهل عجز حافظ عن أن يتخير متين الكلام ورصينه فى غير
وحشية ولا ابتذال . وانظر إلى هذا البيت الذى ربما خيل
إلى الشاعر أنه خفيف الروح :

أياذن لى المليك البرُّ أنى

أهنىء مصر بالأمز الكريم

. أترى فيه انغطاً من ألفاظ الشعر أو معنى من معانى الشعر
ومن أشد عيوب هذه القصيدة أن قوافيها غير مستقرة
فى مواضعها . فقد تجد هذه القافية قلقة مضطربة وتشعر بأنها
لم تأت إلا لأن الشاعر قد احتاج إليها ، لم يدعها المعنى وإنما
دعاها التكلف . انظر إلى هذا البيت :

رأى فيك (المعز) زمان أعلى

قواعده على ظهر الأديم

ما تقول فى (ظهر الأديم) وقد أراد الشاعر أن يقول
الأرض بل لم يرد أن يقول شيئاً إلا فى (المعز) رفع قواعد
الأزهر . ولعل قواعد المساجد والعمارات لا ترفع على ظهر

الهواء وانظر الى هذا البيت :

فشرفها بركبك وافتتحها

وأسعدها بدستور تميم

فانظر الى (تميم) هذه ، أليست نائية في موضعها؟ أليست

تذكرك قول العامة (دستور تمام) ثم ما (شرفها بركبك)

هذه؟ وما (افتتحها)؟

وانظر الى قوله :

فدار البرلمان أعز دار

تشاد لطالب المجد الصميم

أليس (المجد الصميم) لفظاً دعت إليه القافية؟ وهل

تجد للصميم هنا فضلاً على الطريف أو التليد أو الأثيل؟

وانظر الى قوله :

بها يتجمل العرش المفدى

وتحيا مصر في عيش رخيم

أترى إلى (العيش الرخيم) أليست تجدد فيه أثر التكلف؟

ثم أليس في (الرخيم) شيء من الأنوثة قد لا يليق بهذا المقام؟

ثم ما قيمة البيت في نفسه إذا قرأت بعده قول شوقي :

بنى الدار التي لا عز إلا على جنباتها للمالكينا

وقد ذكرت شوقي ، وكنت أريد ألا أذكره الآن !
 فان الموازنة بين ما قال في الدستور ، وبين ما قال حافظ في
 الدستور أيضاً مرّة ، مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقي فلا
تشك في أنه يصف ما يشعر به وما تشعر به أنت أيضاً .
وتقرأ أبيات شوقي فتجد فيها المعاني الغالية القيمة ، قد أدت
في اللفظ العذب الرقيق . ليس فيها للبحث أثر ولا للتكلف
 مظهر . فاذا قرأت أبيات حافظ لم تجد شيئاً . وانما آذتك
 ألفاظ متكلفة وقواف أنزلت في غير منازلها ، وأكرهت على
 أن تستقر حيث لا تحب .

لأمر ما أبت شياطين الشعر أن تسعد حافظاً فأخلفنا
 في هذه المرة ، ولكننا لانيأس من لقاء حافظ ، ومن لقائه في
 وقت قريب !

حرف

حفظ

شعراؤنا و مترجم أرسططاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتاب
هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة
والرضا ، فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ماظفر
به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والاعجاب الذى لا حد له ،
وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أكره
خصومه وأصدقائه على أن يحمدا له عمله فى غير بخل ولا
تقتير ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر
أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه ، وأطلق السنة الشعراء
بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى
الناس ترجمته لأخلاق أرسططاليس ، فقد أجمع الكتاب
على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب
الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه ، وشكر ما قدم
الى اللغة العربية من خير بترجمته هذا الكتاب ، وليس
يعنينا ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف

أحمد

وقراها الناس ، وانما الذى يعنيننا هو هذا الشعر الذى أطلق
به الأستاذ السنة الشعراء وأى الشعراء ! شوقي وحافظ ونسيم .
فاذا كان من الحق علينا أن نقدم الى الأستاذ تهنئتنا الخالصة
بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له ولخير منه ، واذا كان من
حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه
يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرستطاليس من أن
ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث .
نقول اذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حقنا
أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء
بها كتاب الأخلاق لأرستطاليس لنتبين وجهاً من وجوه
القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول
الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر وأنا أعلم
حق العلم ان من الاسراف ان نحكم على القوة الأدبية فى هذا
العصر بكتاب مذهب الأغاني وتهذيب الكامل وبلاغة العرب
فى الأندلس . وأعلم كذلك حق العلم ان من الاسراف والظلم
أن نحكم على قوة الشعر فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث
التي أنشأها شوقي وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد
وترجمته لأخلاق أرستطاليس ، أعلم أن هذا اسراف وظلم

فإن لشوقي وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى
قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجد والهزل فيها لذة
للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب
أن يلاحظ القارئ أني لا أتخذ هذه القصائد عناوين
لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الاجادة
والاساءة ، ومن السمو والاسفاف ، وإنما هي فرصة نتحدث
اليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم في الشعر
ومذاهبهم حين يعمدون اليه ، وليس من شك في أني لا أبخل
بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ، فهم حين
انشأوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة
هي عاطفة الانصاف وإكبار من يستحقون الاكبار ، والوفاء
لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا في نفسه بالشئ القليل ولا
سيما بالقياس الى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد
على جلال خطره وعلو مكانته في أمته ليس هو بحيث يستطيع
أن يمتاز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر وما كان ذلك من
شأنه ولا من أخلاقه ، فشعراؤنا اذن صادقون غير متكلفين ،
مخلصون غير متصنعين فيما قدموا الى الأستاذ من مدح وفيما
أهدوا اليه ، ومن ثناء بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشئ

من الشاء غير قليل لما وفقوا اليه من الوجهة الفنية الخالصة
فكلهم قد وفق الى شيء من الاجادة لا بأس به ، وكلهم قد جد
ق تخير الألفاظ واتقان النظم وإحكامه وإقرار القافية في
نصاها فوفق من هذا كله الى الشيء الكثير ، وكلهم قد اجتهد
في الغوص على المعاني - كما يقولون - وتلّس الغريب الطريف
منها فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة وإنما عاد بشيء يمكن أن
يخصي بين الحسنات الشعرية ، على أنى أستاذ شعراءنا
وأستاذ من قبلهم أستاذنا لطف السيد في أن أكون حراً
حين أنقد هذه القصائد ، فقد تعودت هذه الحرية وحرصت
عليها وأكبرتها عن أن أضحي بها في سبيل انسان مهما تكن
منزله من الناس ومنى ، ولو كان هذا الانسان هو الأستاذ لطف
السيد أو شوقي أو حافظاً أو نسيماً .

أريد أن أكون حراً ، واذن فأنا معذور الى شعرائنا
الثلاثة اذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا للذكر أرسطاليس
ومدحه والاشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا
يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ذكروا أرسطاليس
ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقوني
- وهم يصدقوني - اذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب

الأخلاق الذى أنشأوا من أجله هذه القصائد ، وما أظن أن
علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما
أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً ،
وهنا أتردد بين العتب والثناء فقد يكون مما يستحق الثناء
والاعجاب أن يعتمد الشاعر الى موضوع لا يدركه ولا يحيط
بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا
يبرأ من احسان ، ولكنى ثقيل ملحاح ، شديد الطمع مسرف
فى الحرص على المثل الأعلى ، فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ،
ولا أحب لهم ان يعرضوا للأشياء الا اذا اتقنوها اتقاناً ،
وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول
الشعراء ما لا يفعلون ، ولكن لا أفهم أن يقول الشعراء
ما لا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما
كان الجهل مصدرراً للخير ولا وسيلة للإجادة ولا طريقاً الى
البراعة الفنية ، وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات
الفنية وهو يجهل التشريح ، وما يتصل به من تكون الجسم
الانسانى وما إلى ذلك من هذه العلوم ، التى لا سبيل الى
الإجادة الفنية بدونها . إن الإجادة الفنية اذا كانت أثر من
آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى . والعواطف

الدقيقة والخيال الخصب . فهي لغو اذا لم تستمد غذاءها
الحقيقي من العقل والعلم .

وربما كان شوقي أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب في هذا
الموضوع . نعم هو أحقهم بالعتب فهو من بينهم قد تعلق
بأرستطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ،
وخص له في قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم ، ولعلك
تدهش ، ولعل شوقي نفسه يدهش اذا قلت لك وله إنه لم
يمدح أرستطاليس وانما مدح أفلاطون . . . نعم ، أراد
عمرأ وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمرأ بالخير
فانصرف هذا الخير عن عمرأ الى خارجة ، لأن الشاعر لم يحسن
تلمس السبيل الى عمرأ . ولولا أن نفوس الفلاسفة
والحكماء رضية بطبيعتها لكان من حق أرستطاليس أن
يخاصم شوقي ، وأن ينفس على أفلاطون أستاذة هذا المدح
الذي جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقي أرستطاليس
وأراد الله أفلاطون . ولست في حاجة الى أن أطيل القول
في أن شوقي لم يمدح أرستطاليس ، فيكفي أن تقرأ قصيدة
شوقي لترى أنه يصف أرستطاليس بأنه سبق الى التوحيد
فأعلنه قبل البنية والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً وبأنه كان

قدسى الروح ، وبأن لطفي صدى صوته الرخيم ، وبأن رسائله
كالسلافة إذا جرت في جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة
اليونان من سبق الى اعلان التوحيد فليس هو أرسطاليس
وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً
فقد سبق فلاسفة الى اعلان التوحيد في القرن الخامس قبل
المسيح ، ولكن الشيء الذى يستحق العناية هو أن هناك
فيلسوفاً يونانياً يقرن المسيح ، وتعتبر فلسفته أصلاً من
أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها ، وليس هذا
الفيلسوف أرسطاليس وإنما هو أفلاطون ، أفلاطون
صاحب المثل ، أفلاطون الذى أمعن في طلب المثل الأعلى
والذى استطاع أن يرقى بالنفس الانسانية والفكرة الالهية
الى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعد . أما أرسطاليس
فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد به
فى السماء ، ولهذا لم يصعد أرسطاليس فى السماء ، ولعله لم
يرفع بصره الى السماء وإنما خفضه الى الأرض ، ذلك لأنه لم
يكن يستوحى الحق من السماء وإنما كان يستنبطه من الأرض
استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف تلاميذ فلسفته الشعر حقاً ،
أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً فهذا

الفيلسوف هو أفلاطون لا أرسطاليس . ولو عرف شوقي
إله أرسطاليس هذا الاله العاجز الجاهل المفتون بنفسه
المنصرف الى جماله عن كل شيء ، الذي لا يعلم الا نفسه ولا
يفكر الا في نفسه ولا يعجب الا بنفسه . أقول لو عرف
شوقي إله أرسطاليس هذا لرثى لأرسطاليس نفسه ولما
استطاع أن يقول :

من كان في هدى المسيح
وكان في رشد الحكيم

وغدا وراح موحداً
قبل البنية والحطيم

كلا ، لم يكن أرسطاليس في هدى المسيح ولا في رشد
الحكيم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسطاليس ، ولعله لم
يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء ، ولكن الشيء المؤلم
حقاً هو أن يقول شوقي عن أرسطاليس :

ورسائل مثل السلا ف اذا تمشت في النديم
قدسية النفحات تسـكر بالمذاق وبالشميم
يا لطف أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرحيم

أى الرسائل يريد؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار
أرسططاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد؟ ومن
الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرسططاليس شيئاً
قليلاً أو كثيراً من هذه النفحات القدسية؟ ومن الذى
يستطيع أن يزعم أن صوت أرسططاليس كان رخيماً؟
أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية
- وإنما أريد شعراءنا خاصة - وأعذر شوقى وغيره إذا
خيل اليهم أن توحيد المسيح أو توحيد المسلمين هو توحيد
على كل حال، وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا فى أن يدرسوا
ما بعد الطبيعة، ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه، كما كان يفعل
أبو نواس، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره
هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد فيخيل اليهم
أن أرسططاليس كان حلواً لنثر رخم الصوت قدسى النفحات
تشبه آثاره بالسلافة، صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون
فلن تبلغ من وصفه ماتريد، ولكن لا تصف بها أرسططاليس
فكم كد نثر أرسططاليس عقولاً وصدع رؤوساً؟ والأستاذ
لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيداً بأن نثر
أرسططاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء

وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر
عالم قد أتقن لغته ، وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ويلائم
بينها وبين حاجات العلم والفلسفة . أنت لا تحمد أرسطاليس
ولا تحسن اليه بهذه الصفات ، فقد لا يكون من الخير للعالم أن
تكون لغته ساحرة فتانة لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها .
وإنما هو محتاج الى الدقة والى التشدد في الدقة ، والى أن يسمى
الأشياء بأسمائها . ولكنى قد قلت لك إن شوقى أراد
أرسطاليس وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنثقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد
اشترك فيه شوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا ،
وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ولم يقدروه قدره ولم
يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته . فهم قد فتنوا بلفظ
الأخلاق ، وخيل اليهم أن أرسطاليس قد قصد إلى إصلاح
الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطنى قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم
ترجمه ولعل الرجلين قد فكرا فى شيء من هذا ، ولكنى أستطيع
أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف
الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أراد
خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد . وما أظن

أن كتاب أرسططاليس في الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه في الجامعة وفي مدرسة الحقوق . وهل أستطيع أن ألفت شوقي الى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسططاليس حين قال :

يبني الشرائع للعصور بناء جبار رحيم
فقد يكون أرسططاليس درس السياسة ووضع في هذا
الدرس أصولاً قيمة ولكنه لم يبين الشرائع ، وإذا كان هناك
فيلسوف يوناني شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين .
كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقي لم يدرس
أرسططاليس قبل أن يمدحه فلندع هذا العيب الأساسي الى
ملاحظات أخرى فنية :

انظر الى هذه الآيات :

وسريت من شعب الألب به الى وادي الصريم
فتجارت اللغتان للغايات في الحسب الصميم
لغة من الاغريق قيمة وأخرى من تميم
ألاحظ قبل كل شيء أني لو كنت مكان شوقي لما ذكرت
الألب بعد أن زعمت أن أرسططاليس كان على نهج المسيح

وفي رشد الكلم ، فالألمب مستقر الوثنية اليونانية وعلى قته
 كان يقوم قصر كبير الآلهة زوس ، وألاحظ بعد هذا أن
 القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل ، فما وادى
 الصريم هذا ؟ وما صلة لطفي السيد بوادى الصريم ، وهو انما
 نقل أرسططاليس الى وادى النيل ؟ وما شأن تميم ؟ وهل من
 الحق أن اللغة التي ترجم الكتاب اليها هي لغة تميم ؟ وهل
 نعرف لغة تميم حقاً ؟ ولم لا تكون لغة قريش فهي لغة
 القرآن وهي اللهجة العربية الوحيدة التي نعرفها حقاً ؟ ولكن
 تيميا والصريم ينتهيان بالميم ، وكنت أحب ألا يخضع شوقي
 للقافية هذا الخضوع .

وبعد فان من الجحود والظلم ألا أثني على هذا البيت
 القيم الملائم للحق ملائمة تامة وهو قوله :

لمسوا الحقيقة في الفنون وأدركوها في العلوم
 هذا البيت آية في الصدق فقد لمس اليونان الحقيقة في
 الفن وأدركوها دون أن يلمسوها في العلم ، أكرر ان هذا
 البيت آية في الصدق ومثل جيد للايجاز البديع . وقد أسرف
 في الظلم ايضا اذا لم اثن على هذا الجمال اللفظي في قوله :
 العاشقين العلم لا يألونه طلب الغريم

المعرضين عن الصغار والرُّ والسعاية والنفيم
 وإن كان لفظ الصغار لا يعجبني . وقد يكون من
 الانصاف أيضاً أن أثني على هذه الآيات التي تمثل أنصاف
 شوق ووفاءه وكرم خلقه :

قسماً بمذهبك الجيد ل ووجه صحبتك القسم
 وقديم عهد لا ضيئ ل في الوداد ولا ذميم
 ما كنت يوماً للسكنا نة بالعدو ولا الخصيم
 لما تلاحي الناس لم تنزل إلى المرعى الوخيم
 كم شاتم قابله بترفع الأسد الشقيم
 وشغلت نفسك بالخصيب من الجهود عن العقيم
 نخدمت بالعلم البلا د ولم تزل أوفى خديم
 واندع قصيدة شوقي إلى قصيدة حافظ ولن يكون موقفنا
 مع حافظ أشد حرجاً ومشقة من موقفنا مع شوقي ، ذلك
 لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر ، قلنا إن
 شعراءنا الثلاثة لم يقرأوا كتاب أرسططاليس وما نظن أنهم
 تجاوزوا مقدمة المترجم العربي ولكن حافظاً يزعم لنا أنه
 قرأ الكتاب فيقول :

إني قرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار

فاذا المؤلف مائل جنب المترجم في إطار
وعليهما نور يفيض من المهابة والوقار
كلا يا حافظ ، لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ
لطفى السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم مائلين في إطار وإنما
تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذي تذكره ،
وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى أفهما أقول . فلو أنك
قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين في هذا الاطار
يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل
تريد أن تقنعني بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال
يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسططاليس ويتفهمه دون
أن يوحى اليه الشعر آية من آيات البيان في وصف هذا
العقل الذي لم تعرف الانسانية مثله بعد ؟ كلا ، أنت
كشوقى لا تعرف أرسططاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفى
ولكنك أحق بالرضا وأقل تعرضاً للعتب من شوقى ، ذلك
لأنك ذهبت مذهب أرسططاليس فلم تلمس ما ليس في يدك
ولم تتجاوز الأفق الذى أنت فيه ، مدحت لطفى خاصة
وتأدبت مع أرسططاليس لا أكثر ولا أقل ، ومن هنا أحسنت
في مدح لطفى احساناً لا بأس به وان لم يقصر عن مثله شوقى

ولكن حدثني عن هذا البيت :

بكتاب رسطاليس تا ج نوار الفلك المدار
 ألم يثقل عليك ؟ أتحب هذه الاضافات ؟ وما معنى
 « نوار الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النوار ؟ وما
 معنى أن يكون كتاب أرسطاليس تاجاً لهذه النوار ؟
 أعرف أنى لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة
 الطويلة لتصل إلى لفظ المدار لتظفر بقافية وتحشر في
 القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه ، وكذلك استعبدتك
 القافية في قولك :

زن الكلام كأنه ماس بميزان التجار
 فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة إليه إلا لأنه قافية ؟
 ولكنى أتى في غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً
 الصادقة حقاً :

قالوا لقد هجر السيا	سة وانزوى في عقر دار
ترك المجال لغيره	ورأى النجا مع الفرار
لا تظلموا رب النهى	وحذار من خطل حذار
هجر السياسة للسيا	سة لا لنوم أو قرار
لو أنهم علموا الذى	يبنى لهم خلف الستار

وإن كنت أجد شيئاً من الابتذال في قوله (ترك المجال
لغيره) وأشعر بأن لفظ (مع) شديد القلق في هذا الشطر :
«ورأى النجاة مع الفرار» وهلا قال: ورأى الركون إلى الفرار .
وهل يأذن لي حافظ في ألا أحب « لقم الطريق » في قوله
واجعل على لقم الطريق صُوى تلوح لكل سار
وقد يكون اللفظ صحيحاً ولكن ليس كل صحيح جيداً
ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظني أننا مدينون بهذا البيت كله
للفظ السارى فهو قافية والسرى يستتبع الصوى والأعلام ،
والصوى والأعلام تستتبع الطريق ولكنها لا تستتبع « لقم
الطريق » وهل يغضب حافظ إذا لم أرتح إلى قوله :

عجل بها قبل « الفسا د » وقبل عادية البوار
وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفي السيد أن يفشر
كتاب « السياسة » قبل كتاب الكون والفساد ، ولكن ألا
يشاركني حافظ في أن ضرورات الشعر قد تكون منكورة
أحياناً ، وفي أن التعبير بالفساد عن كتاب الكون والفساد
ضرب من هذه الضرورات المنكرة ، ولكن أشد من هذه
الضرورة نكراً (عادية البوار) التي جاءت لا أدري لماذا ؟
أستغفر الله جاءت للقافية فأخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية !

وسواء أَرْضِي حَافِظَ أم غَضِبَ فسأقول ما في نَفْسِي
ورزقِي عَلَى اللَّهِ - كما يَقُولُونَ - ظَنُّ حَافِظَ أَنَّ كِتَابَ السِّيَاسَةِ
لِأَرِسْتَطَالِيسِ قَدْ يَعْينُنَا عَلَى مَعَالِجَةِ السِّيَاسَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَحَلِّ
المَسْأَلَةِ المِصْرِيَّةِ ، وَلِهَذَا آثَرُهُ عَلَى كِتَابِ الكَوْنِ وَالْفَسَادِ
وطلبَ إِلَى الأَسْتَاذِ لَطْفِي أَنْ يَقدِمَهُ وَأَنْ يَسْتَعِجَلَ فِي نَشْرِهِ .
وَلَمْ لَا ؟ أَلَسْنَا مُتَعَجِّلِينَ فِي حَلِّ المَسْأَلَةِ المِصْرِيَّةِ ، تَتَحَرَّقُ
أَكْبَادُنَا ظَمًا إِلَى الاستِقْلالِ التَّامِ أَوِ المَوْتِ الزَّوَامِ ، وَلَكِنْ
كِتَابُ السِّيَاسَةِ لَا يَقدِمُ وَلَا يُؤَخِّرُ فِي حَلِّ المَسْأَلَةِ المِصْرِيَّةِ ،
وَلَا فِي فَهْمِ السِّيَاسَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَلَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الوَفْدُ الرَّسْمِيُّ
الَّذِي يَمِيعُ جَالِ شَامْبِرْلِينِ أَوْ كَرَزَنْ أَوْ مَا كَدُونَالْدَ ، كما أَنَّ الشَّيْخَ
الْجَرَبِيَّ لَنْ يَنْتَفِعَ بِكِتَابِ الأخْلَاقِ حِينَ يَريدُ أَنْ يَعْظُمَ المِجْرَمِينَ ،
وَلَنَدَعُ قَصِيدَةَ حَافِظَ إِلَى قَصِيدَةِ نَسِيمِ .

وَلَكِنِّي مَتَمُّ حِينَ أَعْرَضَ لِنَسِيمِ فَقَدْ تَفَضَّلَ بِالشَّعَاءِ عَلَى
وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ لِي نَثْرًا يَعْجِبُهُ . عَلَى أَنِّي سَأَكُونُ حُرًّا
وَسَأَغْضِبُ نَسِيمًا كما أَغْضَبْتَ صَاحِبِيهِ فَهُوَ مِثْلُهُمَا يَنْتَظِرُ مِنْ كِتَابِ
الأَخْلَاقِ مَا يَنْتَظِرُ أَنْ وَمَا لَمْ يَنْتَظِرْ أَرِسْتَطَالِيسَ وَلَا لَطْفِي ،
وَمَا أَنَّ شَوْقِي قَدْ أَخْطَأَ حِينَ قَارَنْ بَيْنَ أَرِسْتَطَالِيسَ وَالْمَسِيحِ فَقَدْ

أخطأ نسيم حين ذكر هو ميروس على أنه من شعراء المدح ،
 وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهو ميروس ، فما كان
 هو ميروس مادحاً ولا هو من أصحاب المديح وإنما هو ميروس
 وأصحابه أهل قصص واشادة بذكر الأبطال الذين انقضت
 عصورهم ، فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو بندار وتلاميذه
 وشعراء الاسكندرية خاصة كالليماك وتيوكريت وغيرهما
 وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف
 من شأن القافية ، ولكنى أعترف - لا لأن نسيم ذكرنى !... -
 بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه بل أعترف
 بشيء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم
 شيئاً من الخفة لم يوفق اليه شوقى ولا حافظ وانظر إلى
 مطلع قصيدته :

شعر يزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
 ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعب
 وفى هذا الكلام - على أنه عادى - شيء من الظرف
 والذوبة ، وفى قصيدة نسيم شيء آخر ، وهو أن شخصيته
 ظاهرة مؤلمة مؤثرة ، فهو لم ينس ابنه الذى فقده ، ولم
 يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبشه إلى مدوحه وهو

فيلسوف ، وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثره بهذه الآيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفي قصيدة نسيم هذه الأبيات التي تقدمه على صاحبيه
لأن فيها فكرة طريفة جريئة ، أليس يتمنى على جلالة الملك
أن يكل تربية وليّ العهد إلى لطف مترجم أرسططاليس كما
وكل فيليب تربية الاسكندر الى ارسططاليس :

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يدلى اليك بناشئ في حجر سدة ريب
تسقيه من نهى العلو م ووردها غير المشوب
وتريه في ريمانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصبح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك في الصبا ويشيد باسمك في المشيب
أنا أقدم في هذه المرة نسيما على صاحبيه .

شعر — ر ونثر

صديق العزيز هيك

أدركنى مقالك الممتع حول الشعر والنثر فى هذا البلد
الذى أويت إليه من بلاد لبنان ، معتزلاً كل حركة علمية أو
أدبية إلى حين . ولعلك تذكر أنى كنت وعدتك بطائفة من
الفصول أرسلها إليك من لبنان أدرس فيها درساً رقيقاً شعر
شوقى والبارودى . ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على
الجهد ، فاعتذرت إليك من هذا الوعد وسافرت ولم
اصطحب شعر شوقى ولا شعر البارودى . ومع ذلك فلى فى
الشاعرين رأى أنا على اظهاره حريص ، لا لأنى أراه فحسب ،
بل لأنى أرى فيه عدلاً وانصافاً ، وأرى أن هذا الجيل الذى
نحن فيه قد فتنه الجهل والشهوة فظلم وجار ، وأصبح من
الحق على النقاد أن يرفعوا هذا الظلم والجور . ورغم هذا
كله فقد آثرت نفسى بالراحة وأرجأت اعلان هذا رأى
الى حين ، وأويت الى هذه الناحية الجميلة من نواحي لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن
أخلاق الناس . وكنت أظن أن لن يصرفني عن هذه اللذة
صارف حتى أعزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا
الشاقة مع أول السنة ، ولكنني تورطت فطلبت اليك قبل
السفر أن ترسل الى السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر في
السياسة كلها وصلت الى ، وتورطت فقرأت إعلاناً أذاعت
فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلاً في الشعر والنثر ، فتمنيت
ألا تصل الى السياسة يوم تنشر لك هذا الفصل لأنني لا
أستطيع أن أرى لك شيئاً في الأدب دون أن أقرأه ، وأن
أقرأه في عناية وتدبر ، لأنني كنت كما قلت معزماً ألا أقرأ
شيئاً ذا بال . فلما وصل الى هذا الفصل لم أجد بداً من قراءته
وأنا أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعة اللذيذة التي أنفقتها في
قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً في لفظه وفي
معناه وفي أسلوبه وفي طريقة عرضه على القراء . ويظهر
لي أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها إلى الثناء
والاعجاب ولكنه شره محمود ، فأنت لا تكتب إلا
اضطرت قراءك إلى الثناء والاعجاب ، وأنت لا تسمع ثناء
ولا تحس إعجاباً إلا ازددت اجادة وأمعنت في الاتقان .

ولست أدري الى أين يذهب بك هذا الامعان في اجادة
البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفني فيما تكتب ،
وقد قيل ان لكل شيء حداً ، وأنا أومن بأن للشئ حداً
واللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكني أومن بان ليس
للجمال الفني حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضي أمامنا ونسعى نحن
في أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شيء ،
فنسعى ونسعى وهو يمضي ويمضي ، وإذا فسيزداد حظك من
الاتقان والاجادة ، وسنتهي نحن من الثناء عليك والاعجاب
بك الى حد لا نستطيع أن نتجاوزه ، وسيكون بيننا وبين
حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

× أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربي في هذا العصر
قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة
العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور في هذا العصر
تطوراً لم تعرفه العصور القديمة العربية . وفي الحق أنا نستطيع
الآن أن نصف ألوأنا من الآراء والخواطر في فنون من
القول مرنة سهلة راقية لم يكن لأبائنا بها عهد . وأنت موفق
أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربي الحديث على رقيه وامعانه
في هذا الرقي لم يزل في حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد لا يحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التي تخطر لنا والعواطف التي تجيش في صدورنا . بل نعجز عن أن ننقل خواطر وآراء يراها الأوربيون سهلة يسيرة بل مبتدلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التي لم نتفق بعد على طريق للتخلص منها . وآية ذلك أيضاً أنا نضطر في أحاديثنا وفي كتاباتنا إلى أن نستعير جملاً فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو إلى أن نستعير جملاً من لغتنا العربية العامية .

أنت موفق في هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء . كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل إلى حيث وصل النثر من الرقي والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا إلى ما وصل إليه الكتاب من التمايز بالفاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء .
كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد
سبقنا أنت فأعانتنا وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لى
بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك ، وأحب أن تفكر
فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نرجح من هذا فصلاً
ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهى أنك قد وفقت الى كل هذه
الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها وتوضيحها ، ولكنك لم
تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هذه الحقائق
الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة
للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا
مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن
يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً ،
وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه
الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ
قصيدة لشوقي أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى
أصلها القديم الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من
أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيها الصديق مذهب أصحاب العلم
الطبيعي فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولكني قلت لك
غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الكفاية في
الأدب وفي النقد بنوع خاص ، وما الذي أفدته أنا حين
عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر مازال جامداً ؟ أليس
ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النثر وحمد الشعر
لأزيد من أسباب الرقي ولأجهد في أن أتق أسباب جمود
الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أني فكرت كثيراً في هذه الأسباب وفكرت فيها
منذ اعوام حين كنا نعمل معاً في تحرير السياسة وحين كنا
نلاحظ في شيء من الرضا والأمل أن فتنا النثرى يزداد في
كل يوم مرونة ويصبح في كل يوم أداة صالحة في أيدينا ،
نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعاني المتباينة في جميع
أنحاء الحياة ، وحين كنا نضحك وتهالك على الضحك من
شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة ،
وحين كان كل واحد منا يلقي على صاحبه هذه الكلمة
الكاذبة التي نقدم بها إلى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ
عليهم مبتسمين في سخرية ورحمة وإشفاق ، أشد الألقاب

ضخامة وفراغا !

أنت تذكر هذه الأوقات ، وكيف تنساها ومازلت فيها ؟
أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوقي وحافظ
وغير شوقي وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحابك من
يفتن في ترصيع الالفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدي
هذه القصائد ، وإن على شفيتك لا بتسامة لو رآها الشعراء
وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلكوا بالشعر طريقاً غير
هذه الطريق العقيمة التي لا يعرفون لها آخرأ ؟

فكرت في هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد ،
يخيل الى أنه المؤثر الحقيقي في رقي النثر الحديث وجمود
الشعر في هذا العصر ، وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون
ويضحكون وسيغضبون ثم يثرون حين أعرض عليهم هذا
السبب . ولكني قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك
والغضب والثورة وما هو فوق هذا . فسأعرض عليهم هذا
السبب مبتسماً بل ضاحكاً ان لم يقنعهم الابتسام .

شعراؤنا جامدون في شعرهم لأنهم مرضى بشيء من
الكسل العقلي بعيد الأثر في حياتهم الأدبية ، فهم يزدرون العلم
والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها ، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير . وكيف يقرءون أو يتحدثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد في السماء بجناحيه في غير تفكير ولا بحث ؟ فأما البحث والتفكير فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا فلاسفة أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت كل شيء ، أو قل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى شعرائنا وتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أرى هو السبب الحقيقي لجمود الشعر العربي في هذا العصر ، فليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق في شيء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تتمايز وتتنافر فيمضى العقل في ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضى الخيال في ناحية لينتج الشعر ، وإنما حياة الملكات الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى الفشل والاختفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضاً . وأنا زعيم لك بأن العالم في معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر ،

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغريبة التي
تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلمية الصحيحة .
فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما
ويصعد ويمعن في التصعيد ويعود ومعه نتائج القيمة . أما
الشاعر (العربي) فيزدرى العقل ويستعين به ولا يستعير
مصباحه ولا يهتدى بنوره . واذا فهو لا يستطيع أن يتقدم
لأنه في ظلمة حالكة ، وهو لا يستطيع أن يرى أمامه
فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال
القدماء . ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء في غير فهم
له ولا بصر به ، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما
اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل استغلالاً عفيفاً . وأنا
أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب في
جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل
كانوا في الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من
الناس . فأما في الاسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلمون
حظ عصرهم من العلم . وأستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن
جريراً والأخطل كانا يعلمان علم الشعبي وابن عباس وغيرهما
من علماء عصرهما ، وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعي

وكان يشارك المتكلمين في مقالاتهم ، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفة ، ويسخر من النظام ومقالاته في الكبيرة والتوبة وما اليهما . فأما المتنبي وأبو العلاء فالنظر في شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة ، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

الفرق بين الشعراء والكتاب في هذا العصر : أن الشعراء لا يقرأون ولا يتعلمون ولا يغنيهم أن يقرأوا أو يتعلموا ، فهم غير متصليين بعصورهم ، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور ، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويتزايدون من القراءة والعلم ، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلم . فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرم القراءة الى التفكير ، ويتعلمون فيضطرم العلم الى البحث وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً ، ولست أقيم على ذلك دليلاً معوجاً أو بعيد المنال ، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت في قراءة متصلة . وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ما قرأته من أمثاله . فأما شعراؤنا فيقرأون في السماء وفي السحاب ولكنهم لا يقرأون في الكتب !

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرسططاليس
فنقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا ، وكلنا قرأ الكتاب كله أو
أكثره فى العربية وفى الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية ، وكلنا
قارن بين الترجمة وأصولها ، وكلنا فكر فى فلسفة أرسططاليس
وفلسفة أستاذه أفلاطون ، وكلنا حاول أن يقدر الأمد بين فلسفة
أرسططاليس والفلسفة الحديثة ، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرظ
عن علم وبصيرة . وتقدم لتقريظ الكتاب شعر شوقى وحافظ
ونسيم ، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم
هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلا من أصول هذه
الترجمة ، بل هل قرأوا فصلا واحداً من الترجمة أو الأصل ،
أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً ،
ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة
صاحبه وذهما يمدحان لطفى السيد وأرسططاليس ، وللطفى السيد
شخصية معروفة ولأرسططاليس شخصية معروفة . ويستطيع
الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة
لاتخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ : فأما شوقى فأراد أن
يمتاز فعرض للفلسفة وفلسفة أرسططاليس ، ولكنه لم يستقها
من مصادرهما كما يفعل العلماء ، لأنه لا يجب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ وله خيال يستطيع أن يصعد في السماء
فيرى فلسفة أرسطاليس في الجوزاء، وفلسفة أفلاطون في الثريا
وفلسفة سقراط في المريخ، فيأخذ من هذه الفلسفة ما يشتهي؟
وقد صعد خياله يومئذ في السماء وتنقل بين الكواكب
السيارة والثابتة، ثم تنزل إلينا بفلسفة أضافها إلى أرسطاليس
فاذا هي فلسفة أفلاطون وقد نهته إلى ذلك يومئذ (في السياسة)
فغضب وغضب أصحابه وأنصاره وتحدث بعضهم بأن شوقي
لم يخطئ وإنما أخطأ أرسطاليس! وكيف لا وخيال الشعراء
وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة
المعلم الأول نفسه؟ ولو أنك قرأت شعر شوقي أو شعر حافظ
أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين،
والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه
العلة إلا في أن شعراء نائير فون في الكبرياء فيؤثرون الجهل على
العلم والكسل على العمل، ويقرأون في الفضاء بدل أن يقرأوا
حيث يقرأ الناس، وهل كان فيكتور هوغو أو لامارتين
من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا؟ كلا إن الشعراء
الغربيين كشعراء العرب القدماء، يتصلون بعصورهم اتصالا
متينا، يقرأون ويدرسون ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعي ومنهم

صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف في فنون العلم المختلفة .
 مثل شعرائنا كمثل علماء الدين عندنا ، شعراؤنا يكتفون
 بخيالهم ، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال ، ويعجز
 عن أن يرتفع في الجو ، ويصبح من العقم بحيث ينتج هذا
 الشعر الجامد الذي تقرأه . وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة ،
 ويحماونها كل شيء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد ، بينما
 شعراء الغرب وعلماء الدين في الغرب يقرأون ويتعلمون
 ويتصرفون في الفنون ، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل
 أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التي نجدها عند الشعراء ، والتي تفسد
 عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى - فيما يظهر - إلى القراء
 فيصيبهم الكسل هم أيضاً ، يصيبهم هذا الكسل العقلي فيفسد
 عليهم ذوقهم الأدبي ، وإذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به
 بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر ، فيه أثر
 ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم في ذلك مثل الرجل
 الذي عود معدته لونا أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذي
 لا يغذى ولا يجهد ، فإذا اضطر الى لون آخر من ألوان الطعام
 فيه شيء من دسم أو غذاء لم يسغه ، فإن أساعه لم يهضمه . ومن

هنا لا يميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم ، الذي يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال ، فيجب أن نكون منصفين ، وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكرر طبعهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله في شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعاً ، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الاحسداً وحقداً وحرماً شعواً ، تعلن عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى . وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر في مصر منهم خليل مطران والعقاد . وفي العراق معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقي وحافظ وهي تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما أن يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا في مذهبهم الشعري لأنهم يقولون الشعر لأنفسهم قبل أن يقولوه للناس ، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى أنفسهم والى الشعر ، ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه : مطران فانا أعرفه من أشد الناس ميلاً الى القراءة والدرس ، ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهر آلعقله وخياله معاً. وقد قرأت له شعراً أشهد أنى لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس بهرج اللفظ وزخرف الأسلوب. ولكنه يحس من قرائه فتوراً، ومن أقرانه إعراضاً وازدراء وأزوراراً فيجارى أقرانه ويقول من الشعر مثل ما يقولون، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون. ومن الذين لا يحفلون بأعراض القراء وكيد الخصوم، وإنما يمتصون فى طريقهم جادين لا يلوون على شيء لأنهم يؤمنون بمذهبهم فى الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقى الزهاوى، قد لاتعجبني أحياناً صورهما اللفظية، وقد يقصران أحياناً عن الاجادة اللفظية الممتعة، ولكن خصوما يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون، دون أن يوفقوا الى اثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاماً فارغاً ولا نخرج منه كما دخلنا فيه، وإنما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها الى الناس.

فأنت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلى تظهر أولاً عند الشعراء، ثم تنتقل منهم الى القراء ثم تعود من القراء الى الشعراء، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً، وتحول

بين هذا الفن الأدبي وبين حقه من التطور والتحديد .
وقد أنستني هذه الملاحظة أو كادت تنسيني الملاحظة
الثانية التي ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين
تلاحظ أن الشعر في العصر العربي كان كل شيء في الأدب
العربي . ولكنني أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً
لك بعض الشيء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين
نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر
ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وإنما ذلك ذنبنا نحن !
وأحسب أنك لو عנית بأدب العصر العباسي عناية صالحة
لغيرت رأيك بعض الشيء في النثر ، ولو افقتني على أن الشعر
كان ظاهر المكانة في الأدب العباسي ؛ ولكن النثر لم يخل من
جمال ورونق فني صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح
الأدب العربي الحديث نثرأ كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء
وكسلهم العقلي فناً عرضياً ، لا يحفل به إلا اللهو والزينة والزخرف ،
فاذا أراد بنك مصر أن يفتح بناءه الجديد طلب إلى شوقي
قصيدة فنظم له شوقي هذه القصيدة ، وإذا أرادت دار العلوم
أن تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلبت إلى شوقي والجارم
وعبدالمطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . وإذا

مات عظيم وأريدا الاحتفال بتأبينه ، أوبه نابه وأريدا الاحتفال
بتكريمه طالب الى الشعراء أن ينظموا الشعر في المدح والثناء فنظموه
كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسي
الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا
نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي أو حافظ ، كما أننا لا نتصور
عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ، فأما الشعر الذي
يقال لنفسه ، الذي يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعي ،
الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذي
يقال لا ليمتلق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ،
فلا تلتسمه عندنا ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم
لأنفسهم كرامتها ، فربأوابها عن أن تكون أداة للهو والزينة .
وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين
مر بمصر ، وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور
الا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك
شعر النابهين من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن
لتاجور ديواناً أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والثناء
وافتاح المصارف والاحتفال بالمدارس ؟ الست تلاحظ أن
شعر تاجور شعر انساني ، وأن شعر شعرائنا شعر أشخاص

وظروف ؟! ولتاجور فلسفة كما للعري والمتنبى فلسفة ، فإن
فلسفة شوقي أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟! وتاجور
ترجم شعره الى اللغات الأوروبية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره
الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر
شوقي أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ
ويعجب ويخلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما
ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا
يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وأن أصحابنا لا
يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول ، وإنما يلتمسونه فى
هذا الدخان الذى يرسلونه من افواههم حين يدخنون السجائر
أو الشييشة :

وأرأى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء ، فأنا
لم أكتب للقراء وإنما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك
ستذيع هذا الكتاب ، فأنت فى حل من ذلك ان شئت . أن
كنت أوثر أن تستبقه لنفسك . ولكنى ألح عليك إن
اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو اصلاح ، فأنا
من أشد الناس بغضاً لهذا النوع من التغيير والاصلاح . وأنا
أحب أن يعرفنى الناس كما أنا ، لا كما تحب أنت أن يعرفونى أوثر أن

هذا هو الحق الذى كان عليه

يعرفني الناس كما أنا فيكرهوني على أن يعرفني الناس كما تريد
أنت فيجبوني . وأنا أهدى إليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

— ١٣ —

الرثاء في شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من
الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان
يلبغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم
هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها
إجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كأشد
ما تكون النفوس الممتازة قوة حس و صفاء طبع واعتدال
مزاج . وكانت إلى ذلك وفية رضية لا تستبقي من صلاتها
بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى
للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه
للناس مثلاً يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت إلى هذا وذاك
ترى ديناً عليها ، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس ، وإنما أقول
للنفس والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس
معروفاً إلا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون إلى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون
الى حافظ نفسه ! وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه
أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف
معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما
يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين الذين كانت تمتاز بهما
نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فأما
الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية
الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله
العليا .

رحم الله حافظاً ! لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما
كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الانسانية كلها في كثير
من الأحيان تعيش في هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ،
وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه
الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه
ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن
والذين كانوا يقرأون شعره في حياته ، والذين كانوا يستمعون
له إذا أنشد الشعر في المجالس الخاصة والمجامع العامة ؛
يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من
بأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ،
وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع
الكوارث من نفسه أشد وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة
من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن
ينطق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك
ما يريد في غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التي
لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون
الظروف قد واثمت وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة
ما يقربهم من المطبوعين . وهي أن يبالغوا بالذين يقرأونهم
ويستمعون لهم مثل ما في أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن
الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا
جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية في العصر
الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا في هذه
الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويحميدون وصف الفقيد
الراحل وتعديد خلاله ومآثره ، ويتقنون وصف الحزن
عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن
وقعه في القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم
لا يشيرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن
الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما
كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن
عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ،
هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن
يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون
لهم في الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثي لأنه يحزن ،
وكان يحزن لأنه يحب ، وكان يجب لأن الله قد وهبه نفساً
رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة ، وكما
برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهي من حب أصدقائه إلى حيث لا يقدر
أن يبينه ويبينهم فرقاً ، إلى حيث يراهم جزءاً من نفسه . وكان
حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحب بحسه ويشعر بشعوره ،
فكان إذا رثي علماً من أعلام مصر كأنما يرثي نفسه أولاً ،
وأنما يرثي أمته ثانياً . وقد أتيج لحافظ أن يكون صديقاً
وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت

بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة
 أتاحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنني حدثتك عن وفاء
 حافظ وإيثاره وزهده في متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع
 العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق
 اللمجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره
 من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة في أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع
 للشعر أصولاً ونظماً ، لا يجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا
 عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من
 بعده أن الرثاء والمدح فن واحد في حقيقة الأمر ، وأن الفرق
 بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحي ، وأن
 مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل الماضي
 فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحي
 لجأ إلى الفعل المضارع أو الى ما في حكمه من أنواع الجمل
 فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا ، ولم يهتد
 قدامة وأصحابه في الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ،
 أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شيء ، فان العواطف التي تبعث
 على الرثاء غير العواطف التي تبعث على المدح قوام تلك

الحزن واليأس ، وقوام هذه البهجة والرجاء . وقد يكون
 الاعجاب مشتركاً بين الرثاء والمدح . ولكن قلنا يكون
 الاعجاب وحده مصدراً لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو
 رهبة ، أو أمل أو حسرة ، أو لوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن
 كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودي
 وحافظ في الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون
 المدح والرثاء كما كان يراهما قدماء وابن رشيق وغيرهما من
 النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح
 للأموات . وكان حافظ - رحمه الله - في أول عهده بالشعر
 يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً
 ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها .
 فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الأباظيين في الجزء الأول من
 ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى ، ولم تجد في
 هذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة ، وإنما أحسست
 كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم
 وأراد محاكاتها ، فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبهم في الغلو
 السقيم أحياناً وكأنه لم يدفع إلى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة
 الحزونة . وإنما دفع إليه بمجاملة أصدقائه من الأباظيين ، فانظر

الى هذه الدالية مثلاً ، فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها
عيالاً على دالية أبي العلاء التي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
أخذ معنى من معانيها فجعل يطوّله ويمد فيه ويقلبه على
وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ
منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التماذي بعد هذا أنت غرثان صادي؟
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد !
قد جعلت الأنام زادك في الدهر وقد آذن الورى بالنفاد !
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد !
فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه
بمبالغة الناشئين في الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل
على شيء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب أكل الناس حتى
كاد يأتي عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له
أن يلتمس شرابه في المجرة وطعامه في النجوم ؟ وحافظ يمضي
في التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبي العلاء :

خفف الوطأ ما ظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقيح بنا وان قدم العهد هو ان الأباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور في أكثر القسم
 الأول من شعر حافظ، لافي الرثاء وحده بل في فنونه الشعرية
 كلها، حافظ لم ينشأ شاعراً وإنما اكتسب الشعر اكتساباً
وأنفق حياته كلها في تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكد
 تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التي أشرت إليها
 والتي قضت له بالتفوق في الرثاء. فانظر إليه حين رثى الأستاذ الامام
 الشيخ محمد عبده : كيف غلبت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث
 قلبه وإيمانه الى قلوب المسلمين وإيمانهم؟ وكيف انتقل حزنه
 ووقاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن
 وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخل بأصول
 الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو
 متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا
 الوهن الى شعره سيلاً :

سلام على الاسلام بعد محمد
 سلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
 على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فوا لهنى والقبر بينى وبينه
على نظرة من تلکم النظرات !
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حىال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا
تجاليده فى موحش بفلاة
ولو ضربوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات
فى لفظ هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه
فى شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الأبيات مألوفة
شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فى الأبيات مع
ذلك شيئاً لا أدرى ماهو ! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى ،
بل أنا أدرى ماهو : هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم
فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه ، نفذ
هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله .
ثم انظر الى هذا الجزع العظيم ، كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يغمركل شيء ويأتى على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد
ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك فى الدنيا بغير حماة !

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات
ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع
والقنوط المميت :

مددنا الى «الأعلام» بعدك راحنا
فردت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا

فعدن وآثرن العمى شرقات
ولو أنى ذهبت أحل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت
منها بيتاً واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة
اللفظ وإما لصدق اللهجة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات .
وانظر الى هذه الأبيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق
على الأستاذ الأمام ، وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن
الشرق على حافظ نفسه :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عند ما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ
الامام من نواحيه المختلفة ، لا لانى عجل بل لانى أكره أن
أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى
أحب أن تقرأ معى هذه الآيات التى ختم بها حافظ رثاءه
للاستاذ الامام لتمثل ما فيها من الحزن الصادق والاعتراف
بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم
على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة
ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلى
وأرغم حسادى وغم عدائى

دعائه التقوى وآسسه الهدى
وفيه الأيادي موضع اللبنيات
عليك سلام الله مالك موحشاً

عبوس المغاني ، مقفر العرصات ؟

لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً
تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة

ومطلع أنوار وكنز عظام

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهي لا تستمد خلودها
عن قيلت فيه وحده ولا بمن قالها وحده ، وإنما تستمد هذا
الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الأستاذ الامام
شيئاً رائعاً ، واستطاع حافظ أن يعطي منها صورة رائعة . وما
أكثر ما قال الشعراء في الأستاذ الامام بعد موته ! ولكنك
تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فتجد منه الحسن
الجميل ، وستجد منه المتوسط وستجد منه الرديء دون أن
تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالاً وصدق لهجة
واستحقاقاً للخلود .

ورثي حافظ أستاذه البارودي فيمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته ، ووفق الى احياء الأسلوب
القديم في رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنه على ذلك لم يبلغ أن
يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع أنه لم يكن يريد
الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا على بياني بعد محمود

انى عييت واعيا الشعر مجهودى

ما للبلاغة غضبي لا تطاوعنى

وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فعي واعى

الشعر مجهوده ، وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى

على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليته المشهورة :

« لاتدع بى الشوق انى غير معمود »

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهب إمام الشعراء

ميتاً كما كان يتهيبه حياً ، واعتقد انه مهما يقل فى البارودى فلن

يبلغ من رثائه ما يريد ، فقل ذلك من حده وقت فى عضده وقصر

به عن غايته . ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى

لم يكن رزماً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان

رزماً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الاجادة في رثاء الاستاذ
الامام وفي رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقده رزء آ في
عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثاني
كان فقده رزء آ في عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ في
رثائهما ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب اكتسبت شعره
السياسي ورثاه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة
غربية تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب
انظر الى قوله في رثاء مصطفى كامل :

انى ارى وفوادى ليس يكذبني
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا، ارى نورآ، ارى ملكا
ارى محيا يحينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا قى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه

فنحن في موقف يحلو به القسم

ليكن نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

جئنا تؤدي حساباً عن مواقفنا

ونستعد ونستعدي ونحتكم

ألا ترى الى هذه الايات ، وكيف استحضر الشاعر فيها
شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة ، وكيف مهد لهذا
الاستحضار بهذا البيت الأول الذي خرج فيه عن طوره
العادي وأخرج الناس معه عن أطوارهم ، وهياهم لموقف غير
مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعا ويملا قلوبهم
هيبه وإجلالا بهذا البيت الذي ألفه من جمل منقطعة قصيرة
وختمه بصورة خلاصة رائعة :

أرى جلالا أرى نوراً أرى ملكا

أرى محياً يحينا ويتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الدهول وغلبه على نفسه
وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه

هذا قتي النيل هذا المفرد العلم
ثم انظر إليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه نفسه
وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف
يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذي تملؤه المهابة والروعة
والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحيوه تحيته

من القلوب اذا لم تسعد الكلم
ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان
وطاعة ويقين واعجاب .

ليك نحن الالى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسططاليس صاحب الخطابة
ومنشىء علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلاً لما يسميه في
الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشئ تحت العين .

ورثي حافظ قاسماً فلم يكن في رثائه اياه شعياً ولا شاعر
جمهور بالمعنى الذى نراه في رثائه للاستاذ الامام ومصطفى
كامل، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقاً على مصر من هذه الأحداث التي تلم بها سراعاً
فتتزعزع أعلامها انتزاعاً ، انظر الى قوله :

مالي أرى ، الأحداث حالية

وأرى ربوع النيل في عطل

فاذا الكنانة أطلعت رجلاً

طاح القضاء بذلك الرجل

أو كلما أرسلت مرثية

من أدمى في إثر مرتحل

هاجت بي الأخرى دفين أسي

فوصلت بين مدامع المقل

وان خانني فيما فجعت به

شعري فهذا الدمع يشفع لي

وانظر إلى هذه الآيات وإلى ما أدرك الشاعر فيها من

المعنى الخصب الكثير في اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا

يشق الأبى بصحبة الوكل

لهني عليك قضيت مرتجلاً

لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

غالى القضاء يد القضاء فذا

يبكى عليك ، وذاك فى جدل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور
والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان
فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من
المستنيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم
يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه
بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان رايت رأيا فى الحجاب ولم

تعصم فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه

فما رأيت فم ولا تسئل

وكذا طهارة الرأى تتركه

للدهر ينضجه على مهل

فاذا أصبت فأنت خير فتي

وضع الدواء مواضع العلل

أولا فحسبك ما شرفت به

وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم في نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأي فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الخلو وأدبه العذب فقال هذه الآيات التي تفيض حزناً وأسى ، وتملاً نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينا لا يجد نفسه في هذه المنزلة التي وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسماً ومات حافظ الآن فحزنا لموته ، ونحن نذكر به موت أصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله أن يجعل قلوب الأحياء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم إلى الموت ، ومن خير ما في هذه الآيات يأس حافظ مما انتهت إليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت إليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نرده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذي يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

إذا مات منا سيد قام سيد

قؤول لما قال الكرام فعول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً
وينساه الناس ولا يذكره منهم الا الأقلون .

قال حافظ :

واها على دار مررت بها	قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية	وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت	رد الجواب فرحت في خبل
متعثرا ينتابني وهن	مترنحاً كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به	يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل	تحت التراب بقية الأمل
جاور أحبتك الألى ذهبوا	بالعزم والاقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد الى	تلك النهى في الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به	في الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفا	للكيبن مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت	صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت	طالت عورافها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت	أوان ظلا غير منتقل !
أترانا نحمل حافظاً رحمه الله	شيئاً غير هذا لو أردناه على
أن يصور لأصحابه الأكرمين	حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى
كامل والى سعد و ثروت ؟ بلى ، لقد قلت لك انى لا أرى ان الذين
سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما
كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها .
على أن لحافظ رثاء تقليدياً أو قل رثاء أضطر اليه اضطراراً
للجملة ، أولأن مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء
التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى
قاله فى بعض الأباطين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيده
التي يعزى بها الانجليز عن فقدهم للمكتهم فيكتوريا ، ومن هذا
الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة
الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معان حسان ، منها المبكر
ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب
وان استطاع ان يثير الإعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا
أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه
وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء
ولكنه لم يحققها ولم يحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا
التحقيق والتحصيل لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء ، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعنيه التحقيق ولا التمهيص ، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال ، فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره وحافظ يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار تستطيع ان تحرق المشيعين لولا ما يقاومها مع الدموع . وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من الحجرة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وان يلقي ضيفه جاثياً . وقد سألته رحمه الله ذات يوم كيف تتصور القبر جاثياً ؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك ، ولكن حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يشير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت بلى ولكن . . قال دعنى من لكن واكتف مثل هذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر ؛ فقد كان حافظ يبالغ ويفلو ويطلع الخيال ويضطر الى المحال

ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ، ولا يعيث بها ،
وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث في رثائه وشعره السياسي ،
كما كان مصوراً متقناً للنفوس .

رحم الله حافظاً ! ان فصلاً قصيراً كهذا الفصل لا يسع
رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغي أن يكون النقد
والتحليل . واني لأرجو أن نبليح من ذلك ما نريد في الكتاب
الذي سيبدأ الآن لدرس شاعر النيل .

مكتبة
خالد رشوق
AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY
2000 100

22171

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

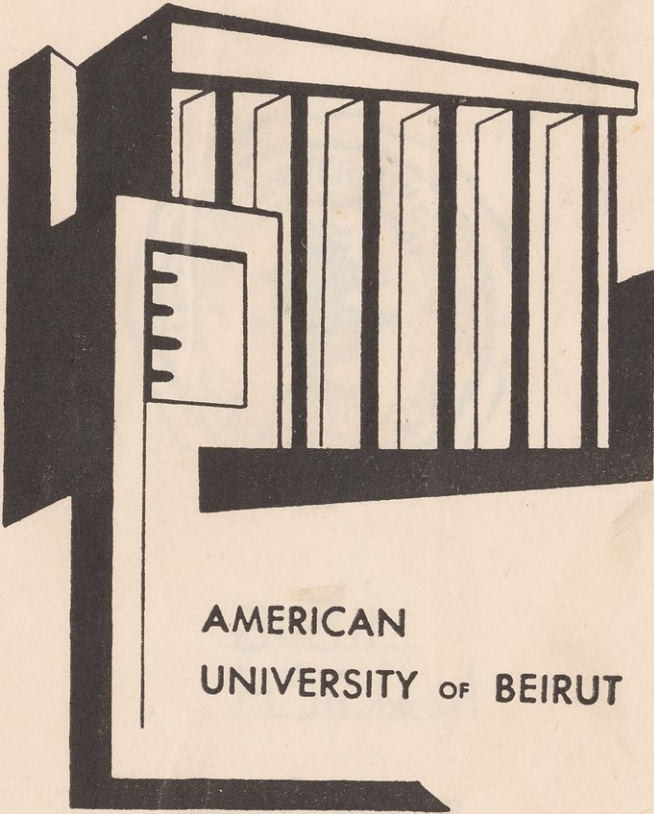
808.1:H96haA:c.2

حسين، طه
حافظ وشوقي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031799



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.7109

Ha 3924h2A